

استيلاء صلاح الدين على مصر

في تلك السنة بعث الفرنج المقيمون في مصر والاسكندرية من أجل حراسة الأبواب وجباية الضرائب إلى ملك بيت المقدس عموري يخبرونه بأن مصر خالية من الجيوش والفرصة مواتية لاحتلالها ، وتحمس الزعماء لتلبية الطلب ، لكن الملك نبههم من حقد العرب عليهم وقال : إن أموال مصر تأتينا عفوا صفوا ، وإذا زحفنا إليها لا بد أن هذا سيدفع العرب للاستنجد بنور الدين وعندها سيغلبونا بعد أن ينضم الغرباء والمصريون في جيش واحد ، وتضيع الاموال التي تأتي للفرنج من مصر ، لكن الزعماء رفضوا اقتراحه ، وعقدوا العزم على الحرب قبل أن يستعد نور الدين ، وتوجهوا إلى مصر ، واحتلوا بلبيس ونهبوها وأسروا أهلها وحاصروا القاهرة ، واصطف أهالي مصر فوق الأسوار وجاهدوا جهادا حسنا ، وقاوموا الأعداء فاستنجد خليفة مصر العاضد بنور الدين بعد أن قص صفائر نساته وأرسلها إليه قائلا : إن نساتي يتذللن بساكنيات بدموع مدراة ويلتمسن أن تسارع إلى إغاثنهن وأن تعمل على إنقاذهن من الوقوع في أيدي الفرنجة ، ومكث نور الدين شهرين يعد العدة للقتال وبسبب تمهله واشتداد القتال أرسل وزير مصر شاور إلى عموري وزعماء الفرنج يقول لهم : إنكم تعلمون بمودتي لكم ، ولو أعرف أن العرب يسايروني لتخلت لكم عن مصر حالا ، لكن لو سمعوا شيئا مني حول هذا الموضوع لقتلونني حالا ، ولهذا أعرض عليكم ماشئتم من الذهب شرط أن تعودوا إلى بلدكم ، ويمكنكم أن تقيموا لكم وكلاء يجبون الجزية كما كان من قبل لأنه إذا جاء نور الدين واحتل المدينة فستخسرون وقتها الجزية والمدينة معا ، واقتنع الفرنج وعادوا إلى بلدهم وغادروا مصر بعد أن رحبوا برأي شاور وعقدوا الصلح ورفضوا على المصريين ألف ألف دينار ، دفع لهم شاور منها على الفور مائة ألف على أن يجمع لهم باقي الذهب ويبعثه لهم بعد رحيلهم .

وعندما علم نور الدين أرسل جيوشه إلى مصر وسير معها شيركوه وسير معه صلاح الدين ابن أخيه ، وزار شيركوه عند وصوله مصر الخليفة العاضد ، وحظي لديه ، وشرع يمالئه بكلمات مغرية لأن الوزير شاور المسؤول عن توزيع الأرزاق لم يكن يؤدي للخليفة وحشمه شيئاً من المال ، واستعد شاور ليولم وليمة لأسد الدين وصلاح الدين ليقبض عليهما لولا أن ابنه ثناه عن عزمه كما أن صلاح الدين كان يريد أن يفتك بشاور ولكن عمه شيركوه نهاه عن ذلك ، وفي يوم من الأيام ذهب شاور لزيارة شيركوه فلم يجده إذ كان قد سار ليتبرك بقبر أحد مشايخ دينه ، فركب حصانه وركب معه صلاح الدين الذي التقى به في الطريق وفيما هما يتحدثان القاه صلاح الدين عن حصانه وأوثقه ولم يقتله نون أخذ رأي عمه الذي أمره بإعلام الخليفة بذلك ووافقهما الخليفة ، لأن شاور كان لايطيعه ، وهكذا قتل شاور وتم الاستيلاء على أملاكه ، وتولى شيركوه مكانه وسمى ملكاً وقائدا أسوة بسائر وزراء مصر ، ولم يتنعم شيركوه بالوزارة سوى شهرين فقد أدركته المنية وتوفي بداء الخناق ، وتولى بعده ابن أخيه صلاح الدين فاستمال بعطائه الجنود واستطاع السيطرة على مصر .

ولم يكن لشيركوه سوى ابن واحد يدعى ناصر الدين ليخلفه وقد أنيطت مدينة حمص به وبأبنائه ، أما أخوه نجم الدين أيوب فكان له ستة أولاد : الأول شمس الدولة توران شاه الذي تولى الاسكندرية ، والثاني : شاهنشاه والدعز الدين فروخ شاه ، وتقي الدين عمر الذي تولى وبنوه حماه ، والثالث : سيف الاسلام طغتكين وتولى اليمن ، والرابع : صلاح الدين يوسف وتولى مصر وفلسطين وسورية ومابين النهرين ، والخامس : الملك العادل أبو بكر الذي خلف صلاح الدين ، والسادس : تلج الملوك بورى الذي مات عندما حاصر أخوه صلاح الدين حلب .

هزوب أمير ملطية مع زانية

وفي السنة ١٤٨١ لليونان (١١٧٠ م) ولى زعماء ملطية أبا القاسم الأخ الصغير لمحمد صاحبها ، بسبب كره الملطيين واشتد غضبهم على محمد هذا بسبب ملازمته لامرأة زانية وساحرة فأخذها وغامر ملطية وجعل يتنقل من دار إلى دار .

وفي هذا الوقت أخذ مليح الأرمني صاحب قبليقية يعتدي على المسيحيين فزحف ضده ملك بيت المقدس تحته الحمية وسجنه في أحد الحصون ، وبقي كذلك حتى استغفر من الملك وأقسم له بالطاعة والعدول عن صحبة الأتراك ، فعفا عنه وعاد .

وفي عام ٥٦٥ للعرب (١١٦٩ م) توفي صاحب الموصل ابن زنكي قطب الدين موبود وأوصى أن يخلفه ابنه عماد الدين زنكي ، وكان لقطب الدين نائب وقيم يقال له فخر الدين عبد المسيح ، أصله من أنطاكية ، وكان قد وقع أسيرا وكان يكره عماد الدين فغير الوصية بالاتفاق مع قطب الدين ووليا الابن الصغير سيف الدين غازي خلفا لأبيه فعاهده الزعماء على ذلك ، وعندها توجه عماد الدين إلى عمه نور الدين في سورية تاركا الموصل ، وأخذ يبكي المملكة والوراثة ويشتكى من عبد المسيح لأنه حرمه إياهما .

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين ٢٩ حزيران - ١٢ شوال اهتزت الارض اهتزازا عظيما لم يشهد له مثل من قبل، وكانت الارض مثل السفينة في لجة البحر، واستغرقت الزلازل مناوبتها خمسة وعشرين يوما ، سقطت فيها اسوار حلب وبعلبك وحماه وخمص وشيرز وبغراس وجميع حصونها وبورها وتوفي اهلها .

وقد سقطت حلب كلها سوى كنيستنا ، وكذلك سقطت ثلاث

كنائس لنا في انطاكية هي : كنيسة والدة الرب ، وكنيسة مار جرجس وكنيسة مار برصوما ، وبقيت كنيسة جبلة الصغيرة ، وكنيسة في اللانقية . وذلك تمجيذا لله عز وجل وتشجيعا للايمان القويم والمؤمنين ، وقد وصف البطريرك ميخائيل السرياني تلك الزلزلة قائلا : « كنا واقفين في هيكل بير مار حنانيا (الزعفران) نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس فسمعنا بغثة صوت رعد قوي وسقطنا على وجوهنا امام المائدة المقدسة ، وتشبثنا بها ونحن نميل هنا وهناك ، وبعد مدة طويلة افقنا كمن يفيق من القبر وانتبهنا انتباه من ينهض من رقاد ، وتدحرجت الدموع من عيوننا واطلقنا الالسنه بالشكر والتسبيح لله تعالى ، واجتاحت بيعة اليونان الكبرى بانطاكية ومنبح بيعة القسيان وهي للفرنج ، وقد اشفق الرب الرحيم على بقية شعبنا وتعطف على ذلنا نحن الذين لم يبق لنا ملك ولاحاكم منا .

وفي العام ١٤٨٢ (١١٧١ م) زفت ابنة قرا ارسلان صاحب حصن زياد الى صاحب ملطية ابي القاسم الذي تهور عن ظهر حصانه في غمرة الاحتفال بالعرس في ميدان الخيل فانقلب الفرخ حزنا ، فولى الملطيون افريدون الصغير اخاه عوضا عنه بعد ان زفوا اليه العروس ذاتها على كره منها .

ويومها اجلى قلع ارسلان اهالي ضواحي ملطية بعد ان زحف اليها مع جيوشه من قونية ، وبعدها انقلب الى قيسارية لكن نور الدين كان له بالمرصاد فنهض نحوه مع صباح ماردين وحصن زياد وارمن قيليقية وابن دانشمند صاحب سبسطية ، فوصلوا الى باب قيسارية فطلب قلع ارسلان الصلح ولم يخرج ليحاربهم ، ورد الذين اجلاهم عن ملطية وضواحيها ، وابقى عنده اولاد اخوته الاربعة ، وحين طالبه نور الدين وجماعته بهم ارسل لهم احدهم على طبق بعد ان نبجه وشواه ، واقسم ان يفعل الشيء نفسه مع الثلاثة اذا طالبوه بهم ، فتركوه ، وعادوا .

وفي عام (١١٧١ م - ٥٦٦ هـ) اغتصبت كل بلاد بني دانشمند من قبل قلع ارسلان .

وفي السنة نفسها وصل خبر وفاة قطب الدين الى اخيه نور الدين وتولى سيف الدين بعد وفاة والده قطب الدين . وبقي عبد المسيح في الموصل يضغط على الاهالي ويشدد عليهم ، ويتصرف كما يحلوه في شؤون الموصل ، مما دفع نور الدين ليقول : ينبغي ان اتولى انا تدبير ابناء اخي لاعبد المسيح ، فتوجه نور الدين الى الرقة واحتلها واحتل الخابور كله ونصبين ايضا بعد ان غادر حلب ، وقد زاره صاحب حصن كيفا محمد بن قرا ارسلان ، واستطاع نور الدين ان يحتل جبل سنجار ، واستعمل عليه ابن اخيه عماد الدين ، وحط رحاله شرقي الموصل جهة نينوى ، بعد ان توجه الى مدينة بلد وعبر بجلة ، وقد سقط صدفة احد ابراج الموصل الذي يبدو انه تصدع في السنة الماضية عند حدوث الزلزلة العنيفة . عند وصول نور الدين الموصل .

وخاف عبد المسيح ان يقتل فأرسل يطلب الامان ، عندما وجد ان العرب قد مالوا الى نور الدين ، واشترط ان تبقى الموصل مع سيف الدين ، لكن نور الدين اجابه بانه لا يريد انتزاع الموصل من ابنائه ، لكنه يريد انقاذ اهلها من ظلم عبد المسيح وينقله معه من الموصل الى سورية ، فتم الصلح وترك سيف الدين متوليا امور الموصل بعد ان دخلها نور الدين ومكث في قلعتها ، واقام شحنة يتولى القلعة اسمه سعد الدين كمشتكين ، وتصرف احسن تصرف فاعفى الاهالي من الضرائب وقسم ارث اخيه على جميع اولاده ، وبنى مسجدا ضخما سمي المسجد النوري نسبة اليه ، والحق جزيرة قردو (١٧) بالموصل ، ورجع الى سورية وبرفقته فخر الدين عبد المسيح ، وسماه عبد الله واعطاه عطايا كثيرة بعد ان بقي في الموصل سبعة عشر عاما ، وقد شبه البطريرك ميخائيل السرياني عبد المسيح بمرذخاي لانه كان يكره العرب وعلماءهم وقد تظاهر بالاسلام وظل يضمم النصرانية ، وكان يعامل النصارى احسن معاملة .

وفاة الخليفة المستنجد

وفي هذا العام يئس الزعماء ولاسيما الاستادار من بقاء الخليفة المستنجد حيا ، بعد اصابته بداء المفاصل ، ففتحوا ابواب السجون ، واطلقوا المساجين، فاخبر الوزير الخليفة بذلك فغضب واوعز الى ابن صفية الطبيب النصراني الوحيد الذي كان يزور الخليفة عند مرضه بالكتابة الى الوزير ليقبض على الثائرين ويفتك بهم ، فنفذ امره وكتب رسالة ووضع الخليفة ختمه عليها وارسلها مع حاجب صغير ، وقال له بان ينفعا الى الوزير دون ان يعرف به احد ، وذهب الحاجب منفذا امر الخليفة لكن الطبيب ذهب الى الاستادار واخبره بما حصل فقبض على الحاجب وقتشه كما قتله ، وبخل مع رفاقه الى دار الخلافة الداخلية وفيها الجواري اللاتي صرخن في وجوههم قائلات : كيف هجمتم ياكلاب علينا هجومكم على سفهات عاريات ، لكنهم لم يعطوا بالا لذلك وتابعوا طريقهم ، وبخلوا غرفة الخليفة وحملوه الى الحمام على الرغم منه بحجة ان الطبيب امرهم بذلك ، وعروه هناك ، ووضعوه في بيت داخلي شديد الحرارة حتى سقط صارخا متاوها ، واخذوا بقرع الباب حتى لاتسمع الجواري صراخه ويعرفن من قتله اذ لم يستطع الزعماء طردهن او ان يتخلصوا منهن، ثم بخل احد الزعماء على الخليفة واخذ يدوس عليه حتى بعج بطنه فنقلوه على آخر رمق حتى تشاهده الجواري ويتحقق انه لم يقتل قتلا، وبعدها رفض الزعماء ان يعطوا الخليفة ماء، وبعدها وعند الحاجب الخليفة بطلب الماء امر الطبيب باعطائه الماء ، فلما منه انه سيموت لدى شربه ولكنه توفي قبل ان يمتص الماء لان حلقومه كان قد انسد وييس ، وطالعنا في كتاب آخر ان هذا الخليفة كان يحب جاريه اسمها بنفشة فغارت منها امرأة الخليفة وحثت ابنه ليضاجعها وفعل كذلك ، وعندما طلب الخليفة الجارية اطلعت زوجته على الحقيقة وانها لم تعد تحل له فغضب ، وخولط بعقله وأمر بقتل ابنه ، لكن الزعماء خالفوه فقتلوه وباعوا ابنه بالخلافة .

ابو الحسن المستضيء بأمر الله - ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م

دام حكم المستنجد تسعة اعوام ، وكان للمستنجد ابن حليم ومتواضع لم يفكر يوما بالخلافة ، وقد وقع عليه اختيار الزعماء الذين قتلوا والده فبايعوه ، ولكنهم قبل ان يبايعوه استحلفوه بان يرد لهم ما اخذه ابوه منهم ، والا يغدر بهم او يقتلهم ، فاقسم لهم بذلك ، وكذلك فعلوا باخيه بعد ان استحلفوه وهددوا بقتله ، ثم هددوا بالقتل جميع ابناء الاسرة ، فلما استحلف الزعماء جميع ابناء الاسرة بايعوه بالخلافة واطلقوا عليه اسم المستضيء .

وفي عام ١٤٨٣ يونانية (١١٧٢ م) عم الارض الثلج حتى الهند التي لم تكن تعرف الثلج ابا ، ويقال ان ارتفاع الثلج بلغ يومها اربعة عشر شبرا ، وتجمدت الينابيع والانهار ، وماتت الحيوانات والطيور من الجوع والعطش ، اما الناس فلم يعد يتيسر لهم الانتقال من قرية الى اخرى ، فلزموا بيوتهم لايتحركون منها وكأنها قبور ، وقضى الثلج على العديد من المسافرين وسكان الخيام ، وعندما تفاقم الجوع في سبسطية بسبب بعد المسافة ، طلب زعماء سبسطية من صاحب كبديكية اسماعيل بن دانشمند قمحا لهم ولنويهم يمسون به رمقهم الى ان يحل الصيف لانه يملك اهراءات كثيرة مملوءة بالقمح ولكنه رفض طلبهم ، فهجموا عليه ، واحتلوا الاهراء وفتكوا به وبامراته التي هي أخت السلطان قلع ارسلان ، وقتلوا معها خمسمائة شخص من الحشم والعبيد والجواري ثم ارسلوا الى دمشق في طلبه عمه ذو الذون ، فأقبل وتولى السبسطية في سبسطية بعد ان كان منهزما من وجه السلطان.

في عام ١٤٨٢ يونانية (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) ارسل نور الدين كتابا الى صلاح الدين كي يخطب لخليفة بغداد ويلغي الخطبة باسم العاضد ، لكن صلاح الدين اجل هذه المسألة خوفا من قيام ثورة ،

فالح نور الدين مرة ثانية ولم يستطع ان يخالفه ، فاختلف زعماء مصر وانقسموا الى فرقتين عندما استشارهم صلاح الدين في هذه المسألة ، احدهما وافقت على ذلك والثانية نهت عنه ، وحضر الى هناك الامير العالم وهو رجل فارسي وقال لهم : انني سأبتي الخطبة واجنبكم المشكلة،وبالفعل صنع كذلك،فصعد يوم الجمعة المنبر ، ودعا لابن العباس المستضيء بدلا من ابن علي العاضد ، وايده الجمهور ، وحصل مثل ذلك في مساجد مصر كلها يوم الجمعة التالية والغيت بذلك خلافة المصريين .

وكان العاضد خليفة مصر آنذاك مريضا ، وتوفي دون أن يدري بما حصل ولأن اصدقاءه لم يعلموه بذلك خوفا من أن يعاجله الموت، أما ابناء الخليفة وآله فقد اعتقلوا من قبل صلاح الدين الذي فصل الاناث عن الذكور كي يقطع نسلهم ، واطلق العبيد والجواري.

وفرغ بذلك العرب من جماعة القضاء والقدر وجماعة مؤيدي الحرية والاختيار ، وقد قيل ان الخلفاء المصريين ينحدرون من رجل مجوسي أو يهودي لاكما يزعمون من علي وفاطمة ، وقد نظم الشعراء القصائد الكثيرة التي تتكلم عن ظهور الدولة اليوسفية والغاء الدولة الفرعونية ، وقد ظهر منهم في المغرب اربعة عشر خليفة ، ثلاثة في افريقية ، وهم: المهدي والقائم والمنصور . وأحد عشر في مصر وهم: المعز ، والعزیز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد.

ولم يعارض صلاح الدين حين استقل بمصر سوى نور الدين الذي ارسل اليه يقول . انني احاصر الكرك فجهز جنودك وسارع بالقدوم الى هناك ، لكن صلاح الدين لم يأبه بالامر . فغضب نور الدين وقرر أن يذهب لمصر بنفسه كي يخرج صلاح الدين ، عندها جمع صلاح الدين أعوانه وشاورهم في الأمر ، لكنهم لم يدروا ماذا يقولون الى أن نهض ابن أخي صلاح الدين الشاب وقال لهم بأن يحاربوا نور الدين اذا حاول دخول مصر ، فوافقه الشباب على

رأيه ، لكن والد صلاح الدين وخاله لم يعجبهما الأمر، فصرخ والد صلاح الدين غاضبا وقال: هل بين الحضور من يرغب لك الخير اكثر مني ومن خالك ؟ فقال صلاح الدين : كلا، فقال والده : كن على ثقة انني وخالك اذا شاهدنا نور الدين سوف نخر ، ونقبل الأرض بين يديه واذا كان الأمر كذلك فمن يتجاسر ويشهر السلاح عليه ؟ ان بلاد مصر بأجمعها وغيرها ايضا هي لنور الدين ، واذا اراد ان يعزلك فلا حاجة به ان يزحف اليك في جيوشه بل حسبه أن يرسل شخصا واحدا ، ثم نهض الشيخ نجم الدين ووجه خطابه الى الاعوان قائلا . اننا جميعا من عبيد نور الدين وله ان يصنع بنا مايشاءه ، ثم قال والد صلاح الدين لابنه بعد أن انصرف الزعماء . انك يافع لاتملك عقلا ولاسياسة، الا تدري اذا علم نور الدين بتمردك يترك كل شيء ويلاحقك حتى يقضي عليك ، ومن ياترى من جنود نور الدين يتركه ليتكلمك ، ونبهه قائلا ان كل كلمة تصدر عني وأنا والدك ستصل الى نور الدين ، ثم نصحه بإرسال رسول يخاطبه بوضوح وصراحة بأنه عبده ويقدم له الولاء ولاء عبده لسيده ، وأن خوفه من الفرنج هو الذي يجعله يتردد في الذهاب لملاقاته ، خاصة أن أحوال مصر مضطربة بسبب ذلك ، وقد فعل صلاح الدين كما أراد الشيخ والده *

وفي تلك الفترة تعرضت قرى كثيرة للنهب حين جاءت الى أطراف الصعيد جماعات غفيرة من النوبة ، ونشب القتال بينهم وبين الجنود الذين وجههم صلاح الدين ، فمات العديد من الطرفين ، ثم تقوى السودان فجاء شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين في جيش غفير ، فهربت النوبة ولاحقهم العرب فقتلوا وغزوا واستطاعوا احتلال قلعة ابريم وأقاموا عليها واليا ، لكن العرب عندما رجعوا استرجع النوبة قلعتهم وعادوا اليها ، وقد أرسل ملك النوبة الى شمس الدولة رسولا وهو في قوص ، وطلب منه الصلح فوافق شمس الدولة بشرط تأدية الجزية ، كذلك بعث شمس الدولة مع رسول النوبة رسولا اسمه سعود الحلبي فوصل الى العاصمة دنقلة ، واستطاع خلال مسيرته أن يتعرف على الضيق ويكتشف ان

أهالي النوبة لايزرعون الا الدخن ، وعندهم النخيل ويأكلون الدخن ملتوتا بتمرهم ونتاج مواشيهم ، ولا يوجد عندهم سوى بناء واحد هو قصر الملك وداره ويسكنون المغاور والخيام ، وروى سعود الحلبي ان الملك أمر بكي يدي على شكل صليب وذلك عندما دنوت منه وسلمت عليه ، وقد كان عاريا ويركب حصانا عاريا لكنه التف برداء اطلس غير مخيط ، وكان رأسه مكشوف واصلع ، وقد أطلقني الملك بعد ان دفع لي خمسين رطلا من القمح ، وروى ايضا انه عندما سلم عليه استغرق بالضحك والقهقهة .

وفي عام ٥٦٩ للعرب (١١٧٣ م) احتلت اليمن واستمكت من قبل شمس الدولة .

وفي أيار ١٤٨٥ لليونان (١١٧٤ م) توفي بداء الخناق في دمشق نور الدين، وكان رجلا قامته طويلة لالحية له وتحت ذقنه بضع شعرات ، بسيطاً في لباسة وكسوته يكره العرب المتحدرين من علي ، واستعاد ابا ن حياته من الفرنجة مايزيد على خمسين مدينة وقلعة ، وبنى في دمشق بيمارستانا كبيرا ومدرسة وبنى مسجدا ضخما في الموصل ، وحدث الرحبي الطبيب الدمشقي الذي ادركت انا الحقير ابيه الطبيبين الفاضلين ، قال: « لما تفاقم داء نور الدين ودعيت الى عيادته مع سائر الأطباء ، شاهدناه في بيت ضيق صغير وطلبنا منه أن يفصد في الوريد فأبى ، ولم نر أن نلح عليه لأننا كنا نهابه جدا ، وما عتم ان مات».

الملك الصالح اسماعيل

وقام بعد نور الدين ابنه الصالح اسماعيل ، وحالفه جميع الزعماء ، وخطب له في مصر صلاح الدين ، وضرب الدراهم والدنانير باسمه ، وفرح صاحب الموصل سيف الدين غازي فرحا عظيما حين نعي اليه عمه نور الدين ، وأمر المتأدين ان ينادوا بحرية الأهالي في أن يشربوا ويسكروا ويبذخوا علنا ، ثم احتل الرها

وحران وماحولهما حين جاء الى بلاد ما بين النهرين بهجوش جرارة ، وبعث قائد الجيش الحلبي شمس الدين الى زعماء دمشق وقال لهم بأن يرسلوا الى حلب الملك الصالح قبل ان ينتزع من ايديهم ، لكنهم لم يتركوا الملك الصالح يغادروهم خوفا من ان يتولى سياسة الدولة ، وبعث صلاح الدين يعاتبهم لانهم لم يستعينوا به ولم يطلبوا منه المساعدة وقال : « لو عرف نور الدين ان بينكم من هو انشط مني لولاه مملكة مصر ، والآن فاني قادم اليكم اذ يترتب علي ان ابصر مولاي وابن مولاي بونكم » . عند ذلك خاف الزعماء فارسلوه الى حلب ، وجعلوا سعد الدين الحاجب قيما للصلاح ، وقد كان سعد الدين في الماضي حافظا لقلعة الموصل ثم هرب وجاء الى دمشق .

وبعث الدمشقيون في طلب الصلح مع ملك بيت المقدس عموري وقبلوا بتأدية الجزية وذلك تخوفا من صلاح الدين ، لكن بعد مرور اربعين يوما على موت نور الدين توفي في عكة في الحادي عشر من تموز الملك عموري ، وقد عظم حزن المسيحيين لموته وخلفه ابنه بلدوين الرابع ، وكان عرب سورية ومصر يهابون عموري .

وزحف سلطان قونية قلع أرسلان الى سبسطية ونوقيسارية وقومانا وملكها جميعها حين بلغه نبأ وفاة نور الدين حليف ذي النون بن دانشمند ، فتوجه ذو النون الى القسطنطينية ، فطلب النجدة من ملك اليونان ، وانتهت يومها زعامة بني دانشمند التي دامت (١٢٢) سنة .

وفي هذا الزمان ضايق امير ميفارقين الأرمن السناسنة ، فبعثوا الى شاه أرمن صاحب خلاط وسلموه حصونهم ، كذلك عاد ملك الكرج انتزع من العجم مدينة أني . (١٨)

قدوم صلاح الدين الى دمشق

وفي عام ١٤٨٥ يونانية (٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) أقبل صلاح الدين الى دمشق بعد ان حشد جيشه متظاهرا بأنه قادم ليساعد مولاه ، ودخل الى بيت ابيه ومكث فيه ثم وسوس الى حافظ القلعة ريحان الخصي ففتح له الباب ، وبخل دمشق واحتلها أخوه سيف الاسلام وأصحابه وأيد الخطبة للملك الصالح اسماعيل ، ثم ترك دمشق واتجه الى حمص واستولى عليها وتابع الى حماة وملكها ، وحين وصل الى جبل جوشن قرب حلب ، احتشد الحلبيون جميعا ومعهم أميرهم أمام ميدان باب العراق ، وطلبوا من الصالح ان يخرج ويكلم الجماعة بشكل مؤثر لصغارهم وكبارهم ، فلبى الصالح طلبهم ووقف في مكان مجاور في الميدان ، وقال لهم : أيها الحلبيون لقد ربيتموني وهأنذا استغيث بكم ، وليس لي أب أو أخ سواكم ، ثم اجهش بالبكاء للرجة الاختناق فبكوا جميعا لبكائه ، ونادوا بصوت واحد : نحن عبيد لك ومستعدين للتضحية فداء لك .

أما الفرنج فقد لاموا صلاح الدين على عمله هذا وأرسلوا اليه ينكرون ذلك وقالوا له : بعملك هذا تنكر جميل مولاك ، ودعوه الى ان يسمعهم ويترك حلب والافسوف يهجمون عليه وينقلبون ضده ، ولما رأى صلاح الدين أن الأمور لن تسير كما رسم لها ، وأيقن أنه لن يقدر على خداع الحلبيين ، انقلب عائدا نحو بعلبك فاحتلها ، ثم توجه الى حمص وتمكن من امتلاك قلعتها ، وبعث الحلبيون الى صاحب الموصل سيف الدين قائلين له ومنبهين بأنه اذا سمح لصلاح الدين باحتلال حلب فلن يترك الموصل ابدا ، فاتفق سيف الدين مع الحلبيين وساروا الى حماة بجيش كثيف بقيادة عز الدين اخي سيف الدين ، وبعثوا الى صلاح الدين وهو في حمص رسولا يخبره انهم يريدون ان يسترجعوا جميع حصون مولاه ويكتفي بدمشق فقط ويكون مثله مثل جميع الأمراء

الذين يخضعون للملك الصالح ، فأجابهم صلاح الدين : بأنه لم يأت الا ليحفظ مولاة وبلاده وخرزائه لا ليحاربه وأنه لن يخالفهم ابدا ، ولكن لما سمعوا رده استضعفوه ، فأضافوا طالبين منه مغادرة سورية والعودة الى مصر والا ليس له الا السيف ، ثم توجهوا الى الرستن فسار اليهم صلاح الدين وتحارب الجيشان في ضواحي حماة ، فانتصر صلاح الدين وجماعته ، وهزم المواصلة والحلبيون وارتدوا منهزمين ، فأمر صلاح الدين جيوشه بألا يلاحقوا المنهزمين ولا يقتلوا أحدا ، وعندها بعث اليه الملك الصالح يسأله الصلح ويعرض عليه ترك سورية الخارجة للصالح ، ويتولى دمشق وحماة وحمص ، فرفض صلاح الدين ذلك ولم يقبل الا بعد ان اضافوا الى ذلك المعرة وكفرطاب ، واقسم أن يخطب للملك الصالح في كل البلاد التي يأمرها وأن يساعده كلما دعت الحاجة لذلك .

ولما سمع المستضيء خليفة بغداد أخبار انتصارات صلاح الدين أرسل اليه حلالا ملكية وسيفا وألوية ومرسوما ، وكان يومئذ قطب الدين قايماز متمردا على الخليفة ومحاصره في قصره ، فخاف الخليفة خوفا شديدا ووثب الى السطح وأمر المنادي بالمناداة بأعلى صوته مستنشدا البغداديين لمساعدة خليفتهم وامام دينهم وليحثهم على ذلك بدافع الدين ، وقد لبي اهالي بغداد النداء وهجموا على قايماز بالعصي والسيوف والأحجار وقطع القرميد واستطاعوا ان يتغلبوا عليه وعلى رجاله فهربوا الى الصحراء وكان العطش قد أتركهم فوجدوا صهريج ماء خنقت فيه الأفاعي ، فانتشر السم في أجسادهم وفي خيولهم ، وعادوا الى الموصل ليقضوا نحبهم بعد ان قضي على أغلبهم في الطريق .

وفي عام ١٤٨٦ يونانية (١١٧٥ م) حاول زعماء أرمينيا اغتيال اميرهم مليح فهرب الى احد الحصون ، لكن الحراس تمكنوا منه وقطعوا جثته اربا اربا وألقوها للكلاب ، وذلك انتقاما للمسيحيين الذين عذبهم والحق بهم السوء والأذى ، ثم طلب الزعماء من

طرسوس روفين ابن اخيه اسطفان وسلموه زمام الامور فقضى على قتلة عمه مليح لانهم مثلوا في جثته بالقائها للكلاب .

وفي عام (١١٧٥ م - ٥٧١ هـ) بعث صاحب الموصل سيف الدين الى الصالح في حلب يلومه على مهادنته صلاح الدين ، ثم سير جيشه وكان يضم نحو عشرين ألف فارس واتجه الى حلب ، وأطلق سراح زعماء الفرنجة الذين كانوا قد سجنوا هناك منذ فترة طويلة .

ثم باع بثمانين ألف دينار قمص طرابلس وبخمس مائة ألف دينار جوسلين بن جوسلين ، وبمائة وعشرين ألف دينار امير انطاكية البرنس ، واستحلفهم ان يساعدوا العرب اينما وجدوا

وتوجه الحلبيون والمواصلة الى حرب صلاح الدين الذي حشد بدوره قواته وتوجه للتصدي لهم ، فالتقى بهم عند اطراف تل السلطان بين حلب وحماه فهزمهم ، واحتل صلاح الدين خيامهم واثقالهم ووجد هناك مجموعة من الطيور كالبلابل واليمام والحمام في اقفاصها ، ومائة من المطربات العاهرات ، وطلب احد ممثلي الروايات ، وبعثه مع الاقفاص الى سيف الدين ، وقال له بأن يذهب ويسلم على سيف الدين بدلا مني وقل له : « ارجع الى شذشنتك ولا عب طيورك لانها تحميك من كل خطر » وكان قد قيد زعماء الموصل ومن بينهم فخر الدين عبد المسيح فكهم وألبسهم ثيابا ومنحهم هدايا وأرجعهم بأمان وسلام تاركا حلب على ماكانت عليه ، واحتل قلعة بزاعا عندما مر بها وتوجه الى منبج وتولاها ، ووقع على ثلاثمائة ألف دينار في قلعتها ، ثم توجه فحاصر عزاز أربعين يوما استطاع بعدها احتلالها .

الحرب التي اندلعت بين منويل وقلج ارسلان

وفي عام ١٤٨٧ يونانية (١١٧٦ م) بنى ملك اليونان منويل مدينتين على حدود الأتراك وجعل فيهما الجنود وأخذوا بازعاج اصحاب قلج ارسلان ، لأن قلج ارسلان رفض ان يرد الى آل دانشمند أماكنهم على الرغم من الحاح منويل ، فسير الملك ثلاثين ألف فارس من اليونان مع ذي النون التركي ابن دانشمند ، وتمكنوا من محاصرة نوقيسارية ، فكتب اتراكها بلسان اهلها النصرارى في اليونانية رسالة يقولون فيها : « لاتصدقوا ذي النون فهو يواصل الأتراك برسائله ، ويحاول ان يغدر بكم ويدفعكم الى اصحابه » .

عندها دب الخوف في قلوب اليونانيين فتركوا المدينة وتتبعهم الأتراك وقتلوا ابن اخت الملك ، فغضب الملك وتوجه الى حدود الأتراك مصطحبا معه جيوشا كثيفة ، وترك العجلات والأثقال ، وسمح لليونان بنهب وحرق القرى التركية الخالية من الناس والزاد ، وأثناء ذلك تمكن الرجال الأتراك من اجتياز الأودية العميقة والجبال الى أن وصلوا الى معسكر اليونان فنهبوه وأحرقوا العجلات وأخذوا يدرجون الحجارة الضخمة من قمم الجبال فسحقت اليونان وخيلهم ، وعندما حل الليل بعث الملك الى السلطان سفيرا يطلب الصلح فلبى السلطان طلبه لأنه كان خائفا مثله ، وسير السلطان في خدمة الملك ثلاثة أمراء من الأتراك رافقوه الى حدود بلاده ، وكان الأتراك قد انتهبوا من اليونان صليبيا يشتمل على قطعة من خشب صليب الصلبوت ، وذلك بين حملة الصليبان والحلل التي كانت ترافق اليونان في كنادسهم (النقالة) ، فأرسل الملك ذهباً وافرا الى السلطان واسترجع عود الصليب .

موت نجم الدين حاكم ماردين

وفي هذا العام توفي صاحب ماردين نجم الدين بعد ان دام حكمه اثنين وعشرين عاما ، عامل خلالها النصارى خير معاملة وصان كنائسهم وأديرتهم ، وتولى بعده ابنه قطب الدين الذي اقبل اليه عمه صاحب حاني وعمه صاحب دارا طائعين ، وصالحهما بعد ان تحرش بهما ، واستطاع ان يقتل الف عربي (معدي) وينتزع منهم اثني عشر الف جمل بعد ان سارع المعديون الى غزو بلده حين زاع خبر موت ابيه ، وهرب من بقي منهم .

وفي السنة ٥٧٢ للعرب (١١٧٦ م) زحف صلاح الدين مجددا ضد حلب ، وعندما لم يستطع صاحبها الصالح مقاومته تذل وطلب منه المودعة ، فقبل صلاح الدين وعقد صلحا مع حلب والموصل وارمينية الصغرى ، ثم بعث الصالح اليه اخته التي طلبت منه اعزاز فأجابها ولبي طلبها ، ثم ترك حلب متوجها الى دمشق وتزوج بعصمة الدين امرأة نور الدين ، وسلم أمور دمشق الى أخيه شمس الدين تورانشاه ، وعاد الى مصر وشيد سورا واحدا يلف مدينتي مصر والقاهرة وبنى فوق الجبل المتوسط قلعة .

هزيمة صلاح الدين عند عسقلان

في السنة ٥٧٣ للعرب (١١٧٧ م) وهي السنة ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨ م) قتل صلاح الدين العديد من النصارى وسفك الدماء وغزا وأسر عندما زحف الى عسقلان في جيوش كثيرة ، فخاف الفرنج لان ملكهم كان في بيت المقدس مريضا بمرض الجذام ، فتشجع متحمسا واجتمع بجنوده ثم ترحل عن حصانه وخر ساجدا أمام الصليب المقدس وأخذ بالبكاء ، فتأثر الجنود وأقسموا على الجهاد والقتال حتى النهاية ، وكنوا حتى

توغل الأتراك في الضواحي من همكين من الغزو ، ولم يستأنفوا القتال فاعتقد الأتراك أن الفرنج ضعفاء ، لكن الفرنج سرعان ماتوجهوا اليهم وأدركوهم وهم يجتازون النهر ، وقد أعمت عاصفة أرسلها الرب الأتراك بعد أن جرفت الرمال من ناحية الفرنج اليهم ، وهاجمهم الفرنج فراجعوا وتاهوا في الصحراء القاحلة ، لكن الفرنج لاحقوهم خمسة ايام ، واخذوا بجمعهم جماعة جماعة وقيدوهم وقتلوهم ، لكن صلاح الدين استطاع الفرار الى القاهرة مع قليين ، قال المؤرخ : « شاهدت حاملي البشري راكبين وسمعت المنادين ينادون في شوارع مصر ان السلطان انتصر ، و الفرنج انكسروا فبادرت لاستخبرهم عن كيفية الانتصار فقالوا : افرحوا وابتهجوا لأن السلطان سالم ، فعرفت ان البشري كانت عكس الواقع »

احتلال قلج ارسلان ملطية .

وفي هذا العام (١١٧٧ م) تصالح قلج ارسلان مع منويل ملك اليونان ، وجاء قلج ارسلان الى ملطية وبقي أربعة أشهر مشددا عليها ولم يستطع ان يدخلها فأوعز الى جنوده ليشتوا في بيوت ابنتوها من اللبن ، وشيدوا له بيوتا كبيرة من الحجارة التي نقلوها من المقابر ، وخاف امير المدينة وهو من اسرة دانشمند ان يتفق الزعماء ويسلموه المدينة محتجين بالغلاء ، فسار الى حصن زياد بعد ان بعث اليه السلطان الأمان ، واستطاع السلطان يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول عام ١٤٨٩ يونانية (١١٧٨ م) أن يحتل ملطية .

وفي العام التالي وبغية مضايقة الدمشقيين ابنتى الفرنجة على شاطئ الأردن في مكان يطلق عليه مخاضة يعقوب مدينة بعد ان اتفقوا مع الملك بلدوين (١٩)

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الأفرنج في فلسطين :

وتوجه صلاح الدين من مصر الى بعلبك بعد ان خرج حاكمها عليه ، وشدد عليه الحصار الى ان طلب الهدنة وسلمه المدينة ثم ذهب الى فلسطين فثار عليه الأفرنج وانتصروا عليه وغزوا نواحي العرب وانصرفوا لكن بعد ان اطمأن الأفرنج الى نصرهم كمن لهم العرب وفاجأوهم واعتقلوا نحو مائة محارب منهم وقبضوا على مقدم الداوية ، ثم سار صلاح الدين الى المدينة التي احدثها الأفرنج وامتلكها ، وكان يوجد فيها يومئذ خمسمائة من الرهبان الداوية الذين شاهدوا غلبة العرب عليهم ، فمنهم من أحرقوا انفسهم ، ومنهم من القوا بأرواحهم في نهر الأردن ، ففرقوا ومنهم من رموا بأنفسهم على الصخور فماتوا وقضت سيوف العرب على من بقي منهم .

مرض منويل ملك اليونان وموته

وفي السنة ١٤٩١ لليونان (١١٨٠ م) مرض ملك اليونان منويل ، ولما احس بنهايته توجه الى احد الأديرة وباع ابنه الكس ، ووضع له التاج ، وبقي منقطعا في الدير ، واناط بامراته والدة الكس خزائن الدولة وجعلها راهبة هناك ، ووضع اثني عشر زعيما ليصرفوا على تدبير الجيوش ، لكن الملكة الراهبة ارتكبت المنكر مع احد اولئك الزعماء الاثني عشر فحاول البقية ان يخلعوا ابنها ويولوا مكانه ابنة منويل وهي من زوجته الاولى بدلا من الملكة الراهبة ، وبياعوا زوجها بالملكة ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك .

وانكشفت المكيدة فهرب الزعماء من الخوف والتجأوا الى الكنيسة الكبرى ، وحدث قتال دام سبعة ايام في المدينة سافكت

خلالها الدماء ، ووجه رجال الملك نحو كنيسة اياصوفيا المنجنيقات ، لكن البطيريك ثيودوسيوس توجه الى الملك وامه اللذان اقسما له بانهما لن يؤنبا احدا ممن هو داخل الكنيسة ، فخرج الجميع مطمئنين ، لكن الملك وامه حدثا بقسمهما وسملا عيون الزعماء وفتكوا باحزابهم ، فانزعج البطيريك والغى قرع الذواقيس وأوقف الصلاة تسعة اشهر ، ثم ابرم الحرمان على المدينة وتركها واعتكف في نير قريب ، ثم شيع الموتى جميعا ودفنوا دون صلاة.

وفي تلك السنة وجه السلطان قلع أرسلان جيشا الى رعبان ، فتصدت له جيوش سلطان دمشق ، فما كان منه إلا أن هرب الى كبدوكية ، وكان لجيش دمشق سجلا حافلا في محاربة الفرنجة.

وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله

وفي عام ٥٧٥ للعرب (١١٧٩ م) توفي الخليفة المستضيء بأمر الله وخلفه ابنه الناصر.

ابو العباس أحمد الناصر لدين الله

مدة حكمه سبعة وأربعون عاما ، فور تسلمه الخلافة ، أودع الوزير ابن العطار السجن ، واستولى على كل املاكه فتوفي وكان ذلك ليل الأربعاء ١٢ ذي القعدة ، وقد ثار غضب البغداديين عندما شيع جثمانه ، وأنزلوه عن كتف من كان يحمله ، وفلقوه وربطوا احليله بحبل ثم سحبوه متجولين به في بغداد ، وتمادوا في هزئهم به الى أن باهر الأتراك فواروا جثمانه ، وقد شهدت تلك السنة ارتفاع الاسعار وانتشار الأوبئة حتى عمت الأرض كلها .

المواجهة بين صلاح الدين وقلج أرسلان

وفي عام ١٤٩٢ لليونان وهي السنة ٥٧٦ للعرب (١١٨١ م) خرج صلاح الدين مهددا السلطان قلج أرسلان والقضية أن نور الدين بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا كان متزوجا من ابنة السلطان ، وكان يهضم حقوقها ويسيء معاملتها ، فتدخل السلطان والدها وهدده فاستنجد نور الدين بصلاح الدين الذي طلب من قلج أرسلان أن يصفح عن زوج ابنته فأبى فاتفق صلاح الدين مع الفرنجة الذين كانوا يقيمون على الساحل وأعد جنده ، وقصد حلب الى أن بلغ برج قرا حصار قرب نهر الأزرق أي بين الحصن وحصن منصور ، فمكث في ذلك البرج ثم وأصل مسيره الى نهر كوكسو فبادر اليه نور الدين فرحب له وأعطاه الأمان. فأوفد السلطان قلج أرسلان سفيرا له الى صلاح الدين فعقدا صلحا يضمن أن يعامل نور الدين زوجته معاملة حسنة ، ومن ثم توجه صلاح الدين الى النهر الأسود ، فانتشر جنده في قرى قيليقية ، والتي كان صاحبها روفين يضطهد الرعاة التركمان ويسبي نساءهم ومواشيهم وأولادهم ، فأرسل روفين هذا كتاب تضرع الى صلاح الدين تنزل فيه ، كما أرسل اليه كمية من الذهب ، وأفرج عن خمسمائة من الأسرى الأتراك وبذلك استطاع أن يعقد صلحا مع صلاح الدين ، فتحول عنه صلاح الدين ، وأما قلج أرسلان ، فقد رجع الى ملطية فأصلح ما تداعى من سورها.

زواج البرنس صاحب أنطاكية من إحدى الزانيات

وفي هذه الأثناء - ١١٨١ م - طلق البرنس صاحب أنطاكية زوجته الشرعية اليونانية ، وتزوج من إحدى الزانيات ، فحرم البطريرك الأنطاكي القس الذي عقد هذا الزواج ومنع قرع النواقيس وإقامة الصلوات ، فثار البرنس ونهب محتويات كنائس الفرنجة

وسيرتهم ، فبارب بطيريك بيت المقدس وعدة قمامصة ، فصالحوه وباركوا زواجه من تلك الزانية ، فأعاد الى الكنائس والديرة ماأخذه منها.

وفي هذا العام أيضا كانت وفاة سيف الدين غازي بن قطب الدين موبود بن زنكي صاحب الموصل ، وقد كان منغمسا في رغد العيش وتعاطي الخمرة ، وكان أهل الموصل إبان ولايته يعيشون حياة رغد وبحبوحة ، وقد خلف سيف الدين هذا أخوه عز الدين مسعود الذي كني بأبي الفتح ، وسار سيرة حميدة ، وأما صلاح الدين ، فقد قصد دمشق ثم غادرها الى مصر ، في حين تداعى بناء قلعة القاهرة ، وفي الاسكندرية توفي شمس الدين أخي صلاح الدين.

وفاة الملك الصالح اسماعيل

وفي عام ١٤٩٢ يونانية ، ٥٥٧ للعرب (١١٨١ م) مرض صاحب حلب الملك الصالح اسماعيل ، وعندما أيقن أن منيته قد دنت ، كتب لابن عمه عز الدين مسعود كي يبارب ليخلفه في الحكم قبل أن يأتي صلاح الدين ، واتفق مع زعماء حلب على ذلك ، ثم مات ويقال إن عبدا أطمعه عنقودا مسموما ، فقتله ، ويقال أن موته كان بسبب مرض المفاصل ، وقد حزن عليه أهالي حلب، والياروقيون (٢٠) الذين كانوا يسكنون في قرى حلب ، وقد بعث هؤلاء الى صاحب سنجار عماد الدين زنكي كي يجعلوه خلفا للملك الصالح ، وأما الحلبيون ، فقد طلبوا اليه أن يتحول عنهم ، وإلا فسيلقونه في غياهب السجن ، فرحل عنهم في حين وصل الى حلب قادما من الموصل عز الدين مسعود فاحتل القلعة ، وتزوج من أم الملك الصالح ، ثم بعث بها الى الموصل كما بعث اليها محتويات الخزائن المكتظة بالاموال من أيام نور الدين بن زنكي ، ووقع هدنة مع بوهيموند البرنس صاحب أنطاكية لمدة عامين ، ثم غادر حلب تاركا في قلعتها ابنه نور الدين الصغير وأقام عليه وصاية ، وقصد مرج

قرأ حصار ، وأوفد الى أخيه عما الدين صاحب سنجان سفيرا ، ولكن عما الدين هذه كان قد تحول بأهله وأبنائه عنها الى قرقيسيا مؤملا أن يعيد له صلاح الدين مملكة أبيه ، وأبلغ السفير بأنه لن يعود ما لم يتنازل له أخوه عز الدين مسعود عن حلب أو الموصل ، أو ما بين النهريين ، فتنازل له عز الدين عن حلب فقط ، على أن يبقى ابنه نور الدين الصغير مقيما في قلعتها فرفض ذلك عماد الدين بدعوى أنه يأنف أن يكون تحت طاعة ابن أخيه ، فأضاف عز الدين الى حلب عربان والمجدل وغير ذلك من بلاد الخابور لتكون تحت إمرة عماد الدين ، ولكن هذا الأخير رفض هذا العرض أيضا ، فاقترح الأعيان أن يتنازل عز الدين لعماد الدين عن حلب وقلعتها ، وأخيرا اتفق الأخوان على أن تكون حلب وضواحيها لعماد الدين ، وأن تكون الموصل وسنجان لعز الدين .

وفي هذا العام قصدت سفن فرنجية دمياط ، وقد كان الفرنجة قد هادنوا العرب لمدة سنتين ولكن العرب غدروا بالفرنجة وقبضوا على ألفين وخمسمائة من ملاحيمهم وتجارهم بدعوى انقضاء مدة الهدنة ، ولهذا اغار الفرنجة على مدينة ايله بسفن كثيرة ، وساروا في أماكن لم يسيروا فيها واغتصبوا سفنا عربية كثيرة مشحونة بالأسلحة والاموال الكثيرة وبطشوا بالعديد من سكان عيذاب ، فوجه صلاح الدين سفنا عدة من الاسكندرية أدركت سفن الفرنجة وقتل من الطرفين خلق كثير.

خبر عن اندورنيقس اليوناني الخبيث

وفي عام ١١٨٣ لليونان ١٤٩٤ م احتال الزعيم اليوناني أندرو نيقس الذي كان قد طرده من العاصمة الملك منويل فخدع الكس ورجع الى القسطنطينية متظاهرا بالاذعان والطاعة ، ومالبت أن رمى بأم الفتى وصهرها وابنتها بالبحر ، ثم

فتك بالفتى نفسه سرا ، كما فتك بما يزيد على ألف زعيم وأحرقهم وفقاً أعين بعضهم ، واغتصب هذا العجوز الخبيث زوجة الكس ، وطرد الفرنجة من العاصمة لكن قبل أن يغادر هؤلاء الفرنجة العاصمة أشعلوا النيران في أربعة عشر ألفاً من قرى اليونان وأبيرتهم ، وعلى أثر ذلك داهم ملك صقلية مدناً يونانية عدة ، وتركها خاوية من سكانها. (٢١)

في عام ١٤٩٣ يونانية ، ٥٧٨ للعرب (١١٨٢ م) غادر صلاح الدين مصر الى دمشق ثم الى حلب في محاولة لاحتلالها ، فنصح بعض الاعيان أن يتجاوز الفرات أولاً وييسط سيطرته على مدن ما بين النهرين وأثور ، ومن ثم يرجع لاحتلال حلب ، فأخذ بهذه النصيحة فاجتاز نهر الفرات ومدن الرها حران والرقبة فاحتلها ، وعندما بلغ مدينة عربان دخلها بلا مقاومة ، لأن حراسها قدموا له مفاتيحها ، كما بسط نفوذه على بلدة ماكسين ، وأحسن معاملة أهالي الخابور ، ثم يم شطر نصيبين ، فاستعد حكامها لملاقاته لكنه حاصرهم وشل حركتهم ، فلم يكن أمامهم إلا أن يسلموه مدينتهم ، فدخلها ثم قصد الموصل وطوقها من جميع نواحيها ، فتوسل صاحبها عز الدين الى خليفة بغداد أن يصلح بينه وبين صلاح الدين ، فكان له ما أراد ، وأرسل الخليفة سفيرا الى صلاح الدين لهذا الغرض ، لكن شرط صلاح الدين كان أن يدفع له أهالي الموصل نفقات رحلته ، أو أن يتخلوا له عن حلب ، فأجابوا بأن ليس لديهم ذهب ، وأما حلب ، فصاحبها عماد الدين وليس من حقنا أن نعطي ما لا نملك

فغادرهم متوجها الى سنجار فتحارب مع صاحبها شرف الدين ابن قطب الدين مودود ، وانتزعا منه ، ثم توجه الى دارا فأذعن له صاحبها صمصام الدين بهرام من بني أرتق ، فتركه عليها ، ورجع الى حران فجعل جنوده في استراحة طوال الشتاء وشهر رمضان والعيد ، وأما هو ، فقد ظل في حران مع قليل من الجند.

وخشي أهالي الموصل أن يرجع صلاح الدين ثانية في الربيع ليحتل

مدينتهم كما فعل بسنجار ، فأستنجدوا بشاه أرمن صاحب خلاط فأنجدهم واتفق لهذا الغرض مع ابن اخته قطب الدين ايلغازي بن البي بن تمر تاش صاحب ماردين خال عز الدين صاحب الموصل ، واجتمع الخلاطيون والمواصلة والماردينية في البارعية ، وانضم اليهم ألف وتسعمائة فارس من الياروقية المجاورين لحلب ، وزحف هؤلاء جميعا للهجوم على صلاح الدين الذي باهر عندما علم بذلك الى جمع جيشه من حمص وحماة وما بين النهرين ، وقد أتم ذلك خلال ثمانية أيام ، وانضم اليه ابن قرا ارسلان من حصن كيفا ، وعندما بلغت شاه أرمن استعدادات صلاح الدين هذه هرع الى صاحبي الموصل وماردين وأقنعهما بعدم جدوى الحرب في الشتاء فعاد كل منهم الى بلاده على أن يجتمعوا في الربيع القادم ، ومع ذلك أخبر صلاح الدين خليفة بغداد بما صنعه المواصلة ، واستأننه باحتلال أمد ، فأذن له بذلك

وفي محرم ٥٧٩ للعرب وأيار ١٤٦٤ لليونان (١١٨٣) تمكن صلاح الدين من احتلال مدينة أمد بعدما حاصرها وقتا طويلا ، قاتل خلاله صاحبها ابن نيسان أعداءه قتالا ضاريا ، ولكن الأمديون خذلوه ، وبيان ذلك أن أصحاب صلاح الدين لما احتشدوا بين سوري المدينة هجم عليهم الأمديون وضيقوا عليهم ، فرجع صلاح الدين رايات كتبت عليها عبارات تهديد تحمل الوعيد والايامن المغلظة بأنه لن يرجع عن هذه المدينة ما لم يدخلها ويبيطش بأهلها إن لم يستسلموا ، وارتعدت فرائض الأمديون وصاحبهم ابن نيسان خوفا ، فاستسلم وطلب من صلاح الدين الأمان له ولأهله ، فأمهله ثلاثة أيام ليخرج من المدينة ما يشاء من أمواله ومقتنياته ، ثم احتل المدينة ، وقد أخرج ابن نيسان من هذه المدينة الكثير الكثير من الذهب والفضة والأنية والأحجار الكريمة على أن كل ما نقله لا يعادل عشر ما كان بحوزته من الأموال ، وبعد أن بسط صلاح الدين نفوذه كاملا على مدينة أمد أوكل أمرها وأمر خراجها من المال لنور الدين بن قرا أرسلان ، فقيل لصلاح الدين إنك وعدت المدينة لا بأموالها التي تزيد على ثلاثة آلاف دينار؟ فأجاب : إنه لا يحسن بنا

أن نعطي صديقنا المدينة فارغة ، وقد قيل أنه عثر في أحد أبراج هذه المدينة على مائة ألف شمعه ، وأنه كان في مكتبها ألف وأربعون ألف مجلد أهداها صلاح الدين كلها لكاتبه القاضي الفاضل ، ومكن ولاية ابن ارسلان على مدينة آمد ، ثم توجه الى عينتاب ، فأذعن له صاحبها نصر الدين بن كمرتكين ، ثم تحول عنها الى حلب فحاصرها ، ولم يكن صاحبها عماد الدين على حال يحسد عليه ، فقد كان استلمها خاوية من المال حتى انه لم يكن لديه ما يقدمه لجنوده ، يضاف الى ذلك أنه لم يجب شيئاً من أهالي حلب وضواحيها ، ويروى انه قال لاحد الزعماء : ليس لدي ما اقدمه لك ، فاجابه هذا الزعيم قائلاً : بع حلي زوجتك وادفع للمحاربين اذا شئت ان تكون ملكا ، وقد افضى به العوز الى حد صار معه الاهالي يطعمونه واهل بيته يوماً فيوما ، وهذا مادفع القادة والجنود الي ان يتركوا امر الحرب للاهالي الذين اخذوا ذلك على عاتقهم ، ومع ذلك لم يدسن لصلاح الدين ان يحتل حلب عنوة ، فلجأ الى المفاوضات ، وبيان ذلك انه استمال ود زعماء حلب بما اغدقه عليهم من الاعطيات ، فأقنع هؤلاء عماد الدين بتسليم حلب لصلاح الدين والاكتماء باماكن اخرى حتى لا يفقد كل شيء ، ثم قالوا له: هل تظن ان العامة يمكنها ان تدافع عنك وتعمل في سبيل رزقك ، وقد نفذ الطعام ولم يعد عندك ماتعطيهم ، فارتضى عماد الدين بأن يدخل صلاح الدين الى مدينة حلب ، وان يستولي عماد الدين على سنجار والرقه ونصيبين والخابور ، وعندما علم اهالي حلب بذلك لفهم الحزن وسخطوا سخطاً شديداً على عماد الدين ، فاجتمعوا عند القلعة وراحوا يسبونهم ويهزأون به ، ووضعوا طستا ورددوا ونادوه قائلين : تبا لك من خنثى لا يصلح لك الاغسل الاواني ، وذلك بينما كان يرمقهم بنظراته من شرفة القلعة التي نزل منها في ١٨ صفر متوجها الى خيمة ضربت له ، ثم قصد سنجار فتولى امرها وامر البلاد التي نص الاتفاق على ان يتولى امرها ، واما صلاح الدين ، فقد كان سروره شديداً باحتلال حلب ، ويحكي انه ردد وهو يصعد درجات القلعة قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك

على كل شيء قدير» (آل عمران: ٢٦)، ويقال انه حدث من معه من الزعماء قائلًا : الان عرفت ان الملك استتب لي ، صدقوني اني لم احسد نور الدين المتوفى الا على حلب ، ولم اتمن سواها ، وبعد ان تمكن منها اعفى الناس من عدة ضرائب ، ثم وزع عليهم من المال مامقداره ثمانمائة وخمسين الف دينار .

وقد اصيب في المعارك التي دارت قبل ان يدخل صلاح الدين حلب اخوه تاج الملوك بوري فمرض عدة ايام ، ثم قضى نحبه،وعندما زاره صلاح الدين قال: « يجب ان تسبر بامتلاكنا حلب وهي لك منذ الان ، فأجاب تاج الملوك قائلًا : ان السيادة تفيد الاحياء وليس من بنت اجالهم سئلي ، ثق تماما انك دفعت ثمن ملكها غاليا ، فقد ضيعت اخاك في ذلك»، وقد كان تاج الملوك محاربا مقداما ، فبكاه صلاح الدين ومن معه من الحضور بكاء شديداً .

وفي تلك الاثناء ابرك حراس حارم ان صاحبها ينوي بيعها للفرنجة ، فاغتنموا فرصة خروجه للنزهة ، فاوصدوا الابواب بونه ، ومنعوه من الدخول ، واخبروا صلاح الدين ان يأتي ويأخذ مدينة حارم ، فنذب لذلك ابن عمه ، وابن اخيه ، ولكن الحراس ، اصرروا على ان يحضر هو بنفسه فكان لهم ما اردوا ، فقد جاءهم صلاح الدين واجزل عطاءهم واخرجهم من القلعة ، ولكنه لم يتعرض لصاحبها بأذى لان الزعماء دافعوا عنه ، واكدوا ان الحراس غدروا به .

وجعل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر مكانه في قلعة حلب ، وقفل راجعا الى دمشق ، ثم غادر دمشق بجيوشه الى قلعة الكرك فطوقها ، ولكن الفرنجة استعدوا للاغارة عليه فأحس بذلك فرجع الى دمشق .

وفي هذا الوقت جاء اخوه الملك العادل من مصر محملا بالذهب الكثير ، فولاه امر حلب ومايتبعها من رعبان وسواحل الفرات حتى

حماة ، وقد خرج الظاهر بن صلاح الدين من قلعة حلب بعد مقدم عمه الملك العادل ، ولحق بأبيه بعد ان اقام في القلعة ستة اشهر .

في عام ١٤٩٥ يونانية ٥٨٠ للعرب (١٠٧٨٤ م) استعد صلاح الدين للهجوم على الكرك فاستقدم نور الدين من حصن كيفا ، واخاه العادل من حلب ، وتقي الدين من مصر ، وتجمعوا هناك ، وفي المقابل استعد الفرنجة فتخوف صلاح الدين ، وامر ان تحرق المنجنيقات ، ثم تحولت جموعه الى السامرة وداهمتها وكان البرنس ارناط صاحب الكرك قد حصن مدينته هذه تحصينا جيدا . واتجه البرنس صاحب انطاكية نحو حارم بمائتي فارس ، فبطش في ضواحيها بعدد كبير من العرب ، كانوا مجتمعين عند جسر الحديد ، كذلك سعد نحواً من عشرين فارساً الى الكمناة في الجبل وكان عددهم نحواً من اربعمائة راجل فقتلوهم على بكرة ابيهم .

وفي هذا العام توفي قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ، فتولى امرها من بعده حسام الدين بولق ارسلان ، ولأنه كان بعد فتى ، عين خاله ناصر الدين شاه ارمن وصيا له اسمه نظام الدين ، فتزوج نظام الدين هذا بأمر حسام الدين ونهض بشؤون الملك خير قيام ، وعندما توفي الفتى حسام الدين ، خلفه اخوه الاصغر قطب الدين بايعاز من نظام الدين وصار امر المملكة بيده ويبد عبده لؤلؤ ، وما ان كبر قطب الدين حتى احس بذلك ، فعمل على التخلص من نظام الدين وعبده لؤلؤ وحدث مرة ان مرض نظام الدين فعاده قطب الدين وعندما انتهت الزيارة خرج قطب الدين فراهقه العبد لؤلؤ الى الباب اكراما له ، وبينما هما في دهليز ضيق ضرب قطب الدين العبد بسيفه فقتله وعاد الى نظام الدين المستلقي على فراش المرض فأجهز عليه ، وقذف برأس العبد ورأس سيده بوجه الزعماء ، فسيطر عليهم الرعب واذعنوا لحسام الدين ، وبذلك انتهت وصاية نظام الدين التي دامت عشرين عاما ، فقد قتل في عام ٦٠١ للعرب (١٢٠٤ م) .

وفي السنة ٥٨٦ للعرب ، ١٤٩٦ يونانية (١١٨٥ م) اتجه صلاح الدين نحو حلب ، ثم تجاوز الفرات الى الرها ، فاخرج منها صاحبها مظفر الدين بن زين الدين ، ثم واصل مسيره الى دارا ورأس العين ، فقدم عماد الدين بن قرا ارسلان لزيارته بدلا من اخيه نور الدين الذي كان مريضا ، ومن ثم استأنف صلاح الدين مسيره الى بلد ثم الى الموصل ، فباشر صاحب اربيل ، زين الدين بن علي كوجك اليه ، وقد كان صلاح الدين صاحب حران مظفر الدين ، وعندما الحكم صلاح الدين قبضته على الموصل وتوسلت اليه صاحبها أم عز الدين بنت أرتق ، فقد خرجت إليه هي وبنت نور الدين وتزلتا إليه في محاولة لأن يترك الموصل لعز الدين ، ولكن محاولتهما لم تجد نفعا ، فثار اهالي الموصل تعبيراً عن تأييدهم لزنكي ورفضهم لصلاح الدين ، لذا لم يجد بدأ من الرحيل ، فقصده خلاط لانه علم ان صاحبها شاه ارمن قد توفي ، فقام عبده بكتمر الذي عامل الخلاطيين جيداً ، فأحبهم واحبوه ، وعندما علم بقسوم البهلوان بن ايلدكز سلطان العجم استنجد بصلاح الدين ووعده بان يتخلى له عن المدينة ، ولكنه حصن مدينته ولم يخرج للقاء صلاح الدين عندما قدم وعندما قدم شمس الدين البهلوان وقف على الطرف الاخر للمدينة ، وتأهب لمنازلتها ، نصحه زعمائهما بالألا يضغط على بكتمر ، والا انحاز هذا الأخير إلى صلاح الدين ، فأخذ البهلوان بنصيحة الزعماء وتقرب من بكتمر فطيب خاطره ، وقدم له محظية من خاصته ، ثم غادره وتركه وشأنه .

وعندما رأى صلاح الدين ذلك انقلب الى ميفارقين التي كان صاحبها قطب الدين ملك ماردين قد توفي فتولى امرها ابنه الفتى كما سلف بيانه ، فطوق صلاح الدين هذه المدينة ، والتي كان قائدها اسد الدين ير نقش ، وكان فيها خاتون زوجة قطب الدين صاحب ماردين ومعها بناتها ، فراحت تشجع المقاتلين ، فامتدت الحرب طويلا دون ان يحقق صلاح الدين مطامعه فيها ، فلجأ الى الممالقة ، فقد منى زوجة قطب الدين المذكورة انفا بان يزوج ابنه من احدى

بناتها ان سلمته المدينة ، فوافقت على ذلك شريطة ان يترك لها قلعة الهتاخ ، فكان لها ما ارادت ، فتركت له المدينة وقصدت تلك القلعة .

وقدم صاحب امد قطب الدين سقمان بن نور الدين بن قرا ارسلان لزيارة صلاح الدين فأحسن صلاح الدين استقباله ، ثم رجع الى مدينته ، ومن ثم قصد صلاح الدين من ميفارقين شاطيء نهر قرمان، كما قصد كفر زمار على ساحل بحلة .

وفي هذه الاثناء شعر اهالي الموصل بضيق شديد ، فبعثوا الى صلاح الدين غير مرة المرأتين المشار اليهما من قبل في محاولة لعقد معاهدة معه ، فتدخل بين الطرفين صاحب سنجار عماد الدين وتمت بناء على ذلك بينهما معاهدة تنص على ان يتخلى عز الدين صاحب الموصل عن شهر زور وعن الزابيين وبيت وازيقي ، وكل الشرق ، كما تنص على ان تضرب النقود باسم صلاح الدين ، وان ينادى في الخطب باسمه ايضا ، وبعد ذلك توجه صلاح الدين الى حران حيث ابتلي بمرض شديد ظن انه سيموت بسببه ، ولهذا قصد ابن عمه ناصر الدين بن اسد الدين شيركوه الذي كان معه الى مدينته حمص حيث اتفق مع الشبان على ان يكون هو خلفا لصلاح الدين ان مات ، ولكن شاعت قدرة الله ان يموت ناصر الدين ، وان يتمائل صلاح الدين الى الشفاء ، فتوجه صلاح الدين الى حمص واستولى على ماكان بحوزة ناصر الدين من الاموال ، وجعل الفتى الملك المجاهد ابن ناصر الدين خلفا له في حمص ، ويقال ان صلاح الدين عندما زار حمص بعد سنة سأل الملك المجاهد الى اين وصلت من القرآن ؟ فقال الى قوله : (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا) (النساء : ١٠) فأعجب صلاح الدين بذلكاء هذا الفتى ، وقال ان كان هذا الفتى قد فهم ما قال ، فقد لزم ان نخافه .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

وفي عام ١١٨٥ م ١٤٩٦ لليونان ، تآهب الباغي أندرونيقس لبيطش باسحق آخر من بقي من أسرة منويل الملكية ، فاعتصم ، اسحق بمنزله ، فبعث أندرونيقس قائد العسكر ليحضره ، فطعنه اسحق بسيفه عدة طعنات ، ثم ركب جواده وتوجه نحو الكنيسة وهو يصرخ وسيفه في يده يقطر دما ، فلحق به بعض الأهالي ولفيف من القادة المعادين للباغي أندرونيقس ، فدخلوا الكنيسة ، وحملوا البطريرك على أن يتوج اسحق ملكا ، وعندما سمع أندرونيقس بذلك لاذ بالفرار عن طريق البحر ، فقبضوا عليه ، وأرجعوه إلى العاصمة ، ونكلوا به وقطعوه بسيوفهم إربا إربا ، ثم أحرقوه أمام الجماهير المحتشدة .

وفي هذا العام اشتد داء الجذام على ملك القدس بلدوين ، فتخلى عن المملكة لابن أخته الصغير بلدوين (الخامس) ومالبت أن توفي .

أخبار صلاح الدين في هذه الفترة

وفي سنة ٥٨٢ للعرب ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) تماثل صلاح الدين إلى الشفاء ، فترك حران متوجها إلى حلب ثم حمص ، وأيقن أن ناصر الدين ابن عمه شيركوه قد مات ، فأخذ قلعة حمص من ابنه الذي كان قد خلفه في ولاية حمص ، وقد وجد في القلعة أشياء كثيرة ، ومن ثم واصل مسيره إلى دمشق ، ثم عاد إلى حلب فعزل عنها أخاه العادل وجعل مكانه ابنه الملك الظاهر ، كما ولى ابنه الثاني الملك الأفضل على دمشق ، وأما مصر ، فقد جعلها لابنه الملك العزيز ، وبعثه إليها مع أخيه العادل ، ولما علم ابن أخيه تقى الدين أن مصر لم تعد له ، ارتاب واستعد للرحيل إلى إفريقية ، ولكن صلاح الدين عمل على إرضائه وطلب إليه أن يحضر إليه ، وأقنعه بأنه إنما قربه منه طمعا بقوته وولاه حماه والمعرة وسلمية ومنبج

وقلعة نجم وميفارقين ، كما استقدم صلاح الدين ابنه الملك المنصور وجيوشه من مصر ، لكن مملوكه بدوزباه رفض الجيء اليه ويمم شطر المغرب وملك افريقية.

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

وفي عام ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) اجتمعت الكواكب السيارة الستة في برج الميزان ماعدا زحل فقد كان على شكلين في ١٤ ايلول و ٢٩ جمادى الآخرة ، فتكهن المنجمون بأنه سيحدث طوفان وريح صرصر تهلك الخلق كلهم ، وأنه سيقع طوفان نظير طوفان نوح فيما لو تجمعت الكواكب كلها في برج الحوت ، وقد كان سلطان قونية قلج أرسلان أكثر الناس اقتناعا بهذه المزاعم لهذا هرع لحفر الأنفاق ، وبناء البيوت المحكمة ، وقد كلفه ذلك مبالغ كثيرة ، ولكن الله تعالى كذب المنجمين ، فقد كان الجو في اليوم الذي زعموا أن الطوفان سيقع فيه أكثر نقاء وصفاء منه في سائر الأيام ، ولم يلاحظ فيه سوى كسوف شمسي مألوف ، ولم يعد للمنجمين مكانة مرموقة في نظر الملوك والسلاطين لكذب دعواهم ولم يحافظ على هذه المكانة سوى منجم مشهور خالف المنجمين فيما زعموه من أن طوفانا سيحدث ، ولما سأله السلطان عما استند إليه فيما قاله قال : إنه لم يعتمد فيما ذهب إليه على التنجيم ، لكن قدر إن وقع الطوفان فسيموت هو وغيره ولن يبقى من يلومه على خطأ مزاعمه ، وإن لم يحدث ، فسوف تصدق تقديراته ويكسب الجائزة ، فضحك السلطان من هذا المنجم وأجزل له العطاء .

وفي هذه الاثناء عقد البرنس صاحب انطاكية صلحا مع صلاح الدين وقبض بالحيلة على روفين صاحب قيليقية وأوثقه بالسلاسل، وحشد جنده وتوجه بهم إلى بلاده، فوقف بوجهه لاون وقفة الأبطال ورده إلى بلده مخزيا ، وعلى إثر ذلك دفع له الأرمن ثلاثين ألف

دينار مع المصيصة وأذنة ، فأفرج عن روفين ، الذي ارتد واستعاد
المدينتين ، فنقم البرنس وعات فسادا في بلاد قيليقية كلها .

وفي هذه الأوقات تم اغتيال البهلوان سلطان العجم ، وقد نجم عن
ذلك حروب طاحنة ، فقد اقتتل الأكراد والتركمان غير مرة في
ضواحي نصيبين ، وبيان ذلك أن أحد التركمان اقترن بتركمانية
ليست من عشيرته ، وعندما مر موكب العرس بحصن كردي في
زوزان اعترض طريق الموكب عدد من الأكراد وطلبوا منهم وليمة
العرس ، لكن التركمان رفضوا هذا المطلب ، فأغار الأكراد عليهم ،
وانتزعوا منهم العروس وساقوها إلى حصنهم فذنب القتال بعنف
وشراسة فقطعت الطرق ونهبت البضائع ، وقتل من الجمعين نحو
عشرة آلاف شخص ، ثم تجمع نحو ثلاثين ألف كردي واشتبكوا مع
التركمان في موقعة قرب الخابور ، فهزم الأكراد وتناثرت جثث
قتلاهم ما بين الخابور ونصيبين ، ثم التقى الجمعان ثانية بضواحي
الموصل وانهمز الأكراد ثانية ، وشرع التركمان بمهاجمة الأكراد
على التوالي حتى طردوهم إلى قيليقية وأوسعوا رجالهم ونساءهم
وفتيانهم قتلا وجرحا وظلوا يلاحقونهم حتى أجبروهم على الرحيل
عن سورية وبلاد ما بين النهرين ، ثم دخلوا أرمينية ، واعتقلوا ستة
وعشرين ألف من الأرمن وجعلوهم عبيدا ، ثم باعوهم ، وأشعلوا
النيران في دير كرابيد وبتشوا برهبانه ، وفتكوا في تل بسمه (٢٢)
بمائة وتسعين من السريان ، وأغاروا على مائتي شاب من مسيحي
السريان في قرية أمرون بقلوذية التابعة للمطية وقتلوهم ، وانتشرت
الفوضى وعم الهلع في كل من ملطية وكبوكية

وفي ذلك الوقت اندلع قتال أيضا بين الاسماعيلية والعرب وفتك
كل منهم بالآخر بشكل فظيع .

الصراعات داخل صفوف الفرنجة في هذه الفترة

وفي هذا العام اختلف الفرنج فيما بينهم وبيان ذلك أن صاحب القدس قبل أن يموت أو كل أمر تربية نجله الصغير إلى قمص طرابلس ، ولكن الطفل مالبث أن مات ، فصار أمر المملكة إلى أمه (٢٣) التي وقعت بحب رجل يدعى غي ، فتزوجته ، وجعلته ملكا مع أنه ليس من أسرة ملكية ، فنقم عليها قمص طرابلس ولجأ إلى صلاح الدين وراح يشي بها ويسائر النصارى ويعرض الاتفاق معه . وفي عام ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) لاحظ صلاح الدين أن البرنس أرناط نكث بتعهده ، فقد تعرض لقافلة تجارية عربية ونهب محتوياتها ، فأعد صلاح الدين جيشا وقصد الكرك ، فحطم أشجارها وخرّب القرى التي حولها ، ثم تحوّل عنها إلى الشوبك وفعل بها مثل ما فعل بالكرك ، وأما ابنه الملك الأفضل ، فقد يمم شطر طبرية وغزة ، وتحرك الفرنجة ولاقوا العرب ، وأوشكوا أن يقضوا عليهم قضاء تاما لولا أن ظاهرهم الحلبيون ، ثم تداول قادة الفرنجة في أمر مقاتلة العرب فرأى قمص طرابلس مصالحة صلاح الدين محذرا من قوته التي استطاع بوساطتها أن يبيسط نفوذه على مصر وفلسطين وسائر بلاد المشرق ، وأما غي الملك الغر الذي تزوج من ملكة القدس فقد قال بغير رسة : لا بد من منازلة العرب ، وعندئذ أجابه قمص طرابلس : سترى عاقبة ما ستفعل ، وكذلك تداول صلاح الدين أمر منازلة الفرنجة مع زعمائه الذين رأوا ألا ينازلوا الفرنجة الآن وهم في أوج قوتهم واجتماع شملهم ، كما رأوا أن يترثوا حتى يتشتت شمل الفرنجة فيضعفوا ويسهل على العرب البطش بهم ، وأما صلاح فرأى خلاف ذلك ، فقد قال : ترى متى يجتمع لي مثل هذه الحشود الغفيرة ؟ الأجدر أن نتشجع ونبارزهم وليفعل الله ما يريد ، قال ذلك ، ثم امتطى جواده واتجه هو وجنده نحو الأردن ، فتوقفوا على ضفاف بحيرة طبرية ، واحتشد الفرنجة في صفورية ومكث الجمعان عدة أيام ، لم يتعرض أحدهما للآخر ، إلى أن بعث

صلاح الدين فريقا من جنده في طريق مائية ومجهولة إلى طبرية ليلا ، وعندما انبلج الصبح تسللوا إلى المدينة وأعملوا فيها السيف والنار ، فاعتصمت الملكة بالقلعة وعندما سمع زوجها غي (٢٤) بذلك خارت قواه ، ولكنه مالئث أن استعاد قوته وتحمس وحمس الفرنجة ، وأغاروا على العرب ، ولما حل الليل وقف الطرفان أحدهما الآخر يرقبا بعضهما طيلة الليل ونال العطش من الفرنجة دون العرب ، لأن هؤلاء كانت بحوزتهم ناحية الأردن ، ولما لاح الصباح وتبين للعرب قوة الفرنجة ، وهم يتقدمون ويقدمون كالديباير خارت قواهم وأحجموا عن القتال ، فبار صلاح الدين إلى وسط جمعهم وهو يردد صيحات مدوية تتمثل بالتشجيع تارة وبالتهديد أخرى وتعد بالمنى حيناً وبالمنية حيناً آخر ، فآثار بذلك عزيمة شاب شجاع يدعى منغورس وهو مملوك من ممالك صلاح الدين فاندفع هذا المقاتل إلى مابين الصفيين ، فبرز له مقاتل فرنجي وطعنه برمحه فهوى عن فرسه ، فانقض عليه وسحبه من ضفيرته متجها به نحو صفوف الفرنجة ، ثم حز رأسه وكان هذا عاملا هاما في رفع معنويات الفرنجة فقد اعتقدوا أنه واحد من أبناء صلاح الدين ، ولما كان قمص طرابلس يبطن المكر فقد خشي أن تكون الغلبة للفرنجة ، فتصبح مشورته بعدم القتال سببا لاحقا لهلاكه ، لذا طالب بالانقراض على العرب والبطش بهم ، ففتحوا له الطريق بين الصفوف ، فعبرها متجها نحو طرابلس، لكن انسحابه هذا كان أحد الأسباب التي أدت إلى خسارة الفرنجة لهذه الموقعة ، فلم يبق بينهم من يثق بصاحبه ، ومع ذلك لم يجدوا للحرب بديلا ، فخاضوها ، فكانت وبالا عليهم فقد فتك بهم العرب ، وأسروا صاحب القدس والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولقيفا من الرهبان الاسيتارية والداوية وغيرهم ، ولم ينج منهم إلا القليلون .

وعندما وضعت الحرب أوزارها اجتمع صلاح الدين في خيمته بزعمائه وطلب أن يحضروا له البرنس أرناط ، وغي زوج الملكة صاحب القدس ، فأكرمه وقد كان العطش قد نال من غي ، فأمر له صلاح الدين بماء حتى يشرب ، فأتي بماء مثلج ، فشرب نصفه ودفن

بنصفه الآخر إلى أرناط فقال له صلاح الدين : لا يجوز أن تسقيه نون أمري ! فقال غي : إن الأسر موت فلا تمته مرتين ، إن الهزيمة قتل ، فلا تقتله مرتين ، فأعجب صلاح الدين بهذا الكلام ، وكاد يعفون عن أرناط لولا معارضة الزعماء الذين أصروا على قتله قائلين : إنه لا يستحق أن يبقى على قيد الحياة ، لأنه أقسم مرارا ولم يبر بيمينه ، وبعد ذلك أرسل الأسيرين إلى خيمة ضربت لهما وبعد ساعة من الزمن ، استحضر صلاح الدين أرناط وحده واستل سيفاً بيده وقطع رأسه ، وكان أرناط هذا قد خاض كثيراً من الحروب ضد العرب وقتل عدداً كبيراً منهم .

فتح بيت المقدس

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى قلعة طبرية فاستمال ملكتها ، وحلف لها ، وأجزل لها العطاء ورحلها مع أهلها وحاشيتها وأموالها إلى طرابلس ، في حين قبض على الرهبان الاسبتارية والد أوية ، وبطش بهم ، ثم باع الفارس منهم بخمسمائة دينار ، وقد كانوا ثمانين فارساً ، وكان صلاح الدين يقول : إن هؤلاء يفوقون الفرنجة جميعاً خطراً وأذى للعرب ، لأنهم يؤثرون الموت في سبيل الإيمان ، فيجب الأجهاز عليهم ، ثم توجه صلاح الدين إلى عكا ، فدخلها بعد أن هرب زعمائها بحراً إلى صور ، ولم يبق في عكا إلا الضعفاء والمساكين ، ودخل حيفا ونابلس وصيدا وتبنين ويافا وقيسارية والناصرية وبيروت ، وقد ازدرى العرب النصارى الذين كانوا يقيمون في البلاد العربية ازدياً تعجز الكلمات عن وصفه ، ومع ذلك نجأ صاحب جبيل ، لأنه سلم العرب مدينته . ثم قصد صلاح الدين عسقلان ، وقد كانت في ذلك الحين تعج بالمحاربين ، فطوقها ، لكنه لم يستطع دخولها ، فسأل صاحب طبرية ملك بيت المقدس الذي كان أسيراً عنده أن يساعده في دخول عسقلان لقاء أن يفرج عنه ، فاستحضر ملك بيت المقدس حاكم عسقلان وطلب إليه أن يسلم مدينته لصلاح الدين فأبى فأمر باعتقاله ، ونصح أهالي عسقلان أن يسلموا مدينتهم فاندعنوا وسلموها ، وحاول أهالي صور أن يسلموا

المدينة ، لكن قمصها كونراد حضر إليها وعمل على حراستها والدفاع عنها .

وتحول صلاح الدين إلى بيت المقدس فحاصرها وأقام المنجنيقات على الجانب الشمالي من سورها لانتساع هذا الجانب ، ومواءمته لتمرکز المحاربين عليه ، وبقيت الأمور على هذه الحال ثلاثة أيام ، فخلق الفرنجة وهم ستون ألفا مابين راجل وفارس ، وخرجوا إلى قتال العرب فبطشوا بالعديد منهم وكان بين هؤلاء عز الدين عيسى صاحب قلعة جعبر ، و في ذلك الوقت شرع الجنود العرب يقذف السهام ليشغلوا المراقبين على السور ، بينما شرع العمال الحلبيون باقتلاع الحجارة بسرعة من فتحة نقيبها في جسم السور وبدأ بالانهيار ، وعندما رأى الفرنجة هذا انهارت قواهم وخارت عزائمهم ، وبدأ اليأس يندب إلى نفوس الفرنجة فبعثوا باثنين من حكماهم إلى صلاح الدين يطلبون الأمان والسلام ، فرفض صلاح الدين ، وقال : لن أفتح المدينة إلا بالسيف ، و سوف أفعل بكم كما فعلتم بالعرب حين ملكتموها ، فأنتم تعرفون كم قتلتم وسبيتم ، فقال أحد الزعيمين : لي كلمة أريد أن أقولها ، ولكن ليس قبل أن تعطيني الأمان ، فقال له صلاح الدين : عليك الأمان ، فقل : فقال السفير : لو لم نعرف قوة إيمانك و ارتباطك بشريعتك وتمسكك بسنة من تقدمك من الملوك المنتصرين الذين كانوا إذا انكسر أعداؤهم و ألقوا سلاحهم طلبوا الأمان و أعطوه ، لما أتينا إليك ، والآن بعد أن جنناك و لم نجد من من كرمك ما كنا نأمل ، سنعود وسنبليج رجالنا الأبطال المجاهدين ما لاقيناه لديك ، و اعلم أن أول ما سنفعله هو البطش بمن لدينا من الأسرى العرب ، و سنحرق مسجدكم الكبير ثم الكنائس و سائر الأبنية ، ثم الأموال و المقتنيات و لن نبقى على شيء ثم سنذبح نساءنا و أبناءنا و بناتنا بأيدينا ، و لن ندع لكم فرصة الانتقام منا ، ولن يستسلم الرجل منا قبل أن يقتل واحدا أو اثنين منكم ، فأخذ صلاح الدين بهذا الكلام و أوعز للسفيرين أن يمكثا في إحدى الخيم إلى أن يتداول الأمر مع قائده الذين قالوا له : إن كل ما قاله هذا الرسول صحيحا ، و قد يصنع

الفرنجة أكثر من ذلك فاستدعى صلاح الدين الرسولين وقال لهما :
إنني أقبل بما عرضتما ، ولكن لا يمكن أن يخرج كل الفرنجة من
بيت المقدس مجانا ، و أمرائي يطلبون ذهباً لأنهم خسروا في هذه
الحرب كثيراً فاتفق الطرفان على أن يدفع كل رجل عشرة دينارين و
المرأة خمسة دينارين ، و أن يدفع كل ولد ، و كل بنت دينارين ،
ويخرج الجميع في كل ما يمكنهم حمله ، فأدى الأغنياء عنهم و عن
غيرهم من الفقراء و خرجوا جميعاً آمنين و كان مجموع ما استطاع
أن يدفعه الأغنياء عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، لكن مع هذا فقد
بقي خمسة آلاف ممن لم يستطيعوا أن يدفعوا شيئاً فساقهم العرب
أسرى ، لكن بعض الحراس أفرجوا عن عدد كبير من المسيحيين
لقاء رشوة مقدارها دينار أو دينارين ، في حين أفرج مظفر الدين ابن
زين الدين عن ألف شخص تقريباً من الأرمن و السريان بلا مقابل ،
لأنهم كما قال : رهاويون من أبناء رعيتي ، و مثل ذلك فعل ابن
شهاب الدين صاحب البيرة ، فقد أفرج عن معظم أبناء بلده.

و في ذلك الوقت كان في القدس ملكة يونانية متوشحة بثوب
الرهبانية و منقطعة للعبادة في أحد الأديرة فالتمست من صلاح الدين
أن لا يتعدى عليها ، فكان لها ما أرادت ، فقد أمر صلاح الدين أن
تخرج هي وأموالها و الشمامسة ، و الشماسات و الخدم تحت
حماية كوكبه من الفرسان الى حدود الفرنجة ، و صنع صلاح الدين
الأمر نفسه مع جميع الملكات الفرنجيات اللواتي كن في القدس ، و
أخرج البطريرك جميع محتويات كنيسة القيامة و سائر الكنائس و
قناديل الفضة و الذهب و رطل ، و أما أهالي القدس فقد باعوا مالم
يقووا على حمله ، و باختصار سلموا صلاح الدين المدينة خاوية من
النخائر ، و هذا ما حمل العماد الكاتب على أن يقول لصلاح
الدين : لماذا ينقل هؤلاء كل هذه الأموال علماً أن اتفاقك معهم لا
ينص إلا على الأمان ، فقال له صلاح الدين : هذا صحيح ، ولكن
الفرنجة إذا ما اعترضناهم لن يتفهموا موقفنا على هذا النحو
بل سيفسرونه تراجعاً عن قسم قطعناه على أنفسنا و سيثبتون ذلك في
الأصقاع فيشوهون سمعتنا ، و هكذا انتزع صلاح الدين القدس من

الفرنجة يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ ميلادي) و ١٢ تشرين الأول ١٤٩٨ لليونان ، و ذلك بعد ٢٨ يوما من تجمع الكواكب السيارة الستة ، ولم يتسن للمسيحيين بعد هذا التاريخ أن يملكوا القدس أبدا ، ومع ذلك أبقى صلاح الدين أربع رهبان من الفرنج في كنيسة القيامة ليقوموا على خدمة القبر المقدس و تولى بعد زمن قصير بطريرك اليونان أمر رعاية هذه الكنيسة

وبعد بيت المقدس يعم صلاح الدين شطر مدينة صور القابعة في قلب البحر فأقام حولها أبراجا قوية وقد استنفذ كل طاقاته في قتال هذه المدينة ، وكان يشجع جنده قائلا : لم يعد للفرنجة على البحر موقع يقيمون فيه إلا صور ، فإنا طربناهم منها إن يقروا على مهاجمتنا بعد الآن ، فاندفع جند صلاح الدين يقاتلون الفرنجة في هذه المدينة بلا هوادة ، لكن نون جدوى ، فقد أحكم تحصينها بالخنادق ، المركيز الذي قدم من رومية ، وكان رجاله الأبطال الملاحون يغيرون على العرب ويبطشون بهم ويعونون ، ولهذا استعان صلاح الدين بألف سفينة ضخمة من الاسكندرية ، فأغار الفرنجة عليها ليلا وحطموا معظمها ، واعتقلوا ملاحيها ، وألقى ما تبقى منهم أنفسهم في البحر فغرقوا ، في حين فر آخرون بسفنهم الى بيروت ، فتبعهم الفرنجة وألقوا القبض عليهم وعندما شاهد صلاح الدين دفاع الفرنجة المستميت أمر بإحراق ما أقام من الأبراج ، وما بقي لديه من السفن والمنجنيقات أمر بتحويلها من صور الى عكا وأمر جنده بأن يمضي كل منهم الى وطنه كي ينال قسطا من الراحة في بيته.

الخلاف بين صلاح الدين والخليفة الناصر

نشأ في هذه الآونة خلاف بين صلاح الدين وبين الخليفة الناصر ، وسبب ذلك أن صلاح الدين لم يؤد الجزية للخليفة عن

سورية ، كما أنه لم يبعث له شيئاً مما كان يجبيه من مصر ، بل حاول في نشوة انتصاراته أن يلغي الخطبة للخليفة ، ويجدها للفاطميين بمصر ، وقد استاء الخليفة أيما استياء عندما أخبره بغدادى كان من قبل يعمل في خدمة صلاح الدين باستيلائه على بيت المقدس .

وفي هذا العام حشد واحد من الرعاة التركمان يدعى رستم خمسة آلاف فارس ، وجمعا غفيرا من الرجالة وتوجه لغزو قيليقية ، فباير صاحبها لاون الى سد الثغور في ناحية مرعش ، ثم أغار على هؤلاء التركان فهربوا وتحولوا الى غزو أطراف حلب ، فانبرى لهم البرنس بوهيموند وأبادهم جميعا .

وفي عام ٥٨٤ للعرب (١١٨٨ م) قاد صلاح الدين جنده بنفسه الى حصن الأكراد لفتحه ، فحاصره يوما كاملا لكن استعصى عليه فارتد الى طرطوس ، وقبل أن ينهي جنده نصب خيامهم تمكن الحلبيون من احتلال أسوار هذه المدينة ، واعتصم الفرنجة في برجين من أبراجها ، ولكن هؤلاء جميعا لم يصمدوا في وجه صلاح الدين فاستسلموا له فهدم قلعتها وأسوارها وكنيستها المعروفة بكنيسة مريم والدة الرب وكل ابنتها ، ثم قصد قلعة المرقب فلم يلق فيها أحدا ، ثم قصد جبله فسلمه أيها من فيها من العرب ، ثم توجه الى اللاذقية فهاجمها بقوة وضراوة ، ثم قام الحلبيون بحفر نفق تحت الأرض طوله ستون ذراعا وعرضه أربعة أذرع ، فخارت قوى الفرنجة واستسلموا لصلاح الدين وطلبوا منه الأمان فأنن لهم أن يخرجوا بأولادهم ونسائهم وأموالهم ما عدا آلات الحرب والبهائم والقمح ، وقد جعل صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة واليا على اللاذقية .

وقدمت في هذه الايام جيوش فرنجية في كثير من السفن من صقلية لنصرة المسيحيين ، وبار قائدهم ليحادث صلاح الدين قائلا: لقد بسطت نفونك على كل السواحل التي كانت بيد الفرنجة ولم تدع

لهم إلا القليل ويحسن بك أن تكف عن محاربتهم ، وإلا أغاروا عليك من البحر زرافات ووحदानا وضايقوك ، فالأجدر بك ألا تسيء معاملة جيرانك فهم بمنزلة الحصن الذي يحميك من الأهلالي ، فأجاب صلاح الدين قائلاً إن مبادئ ديننا تملئ علينا أن نعزز هذا الدين ونحميه ، والله يفعل ما يشاء ، فرجع القائد الفرنجي الى بلده ، ثم تابع صلاح الدين زحفه فوصل قلعة صهيون القائمة على صخرة واقفة بين واليين عميقين ، فطوقها ثم دخلها بسلام ، وجعل ناصر الدين منغورس بن عمر تكيين مملوك مجاهد الدين بن بوزان واليا له عليها ، ثم اجتاح شفر بكاس وزحف نحو الدريساك واحتلها ، كما انتزع بغراس من الرهبان الداوية ، وقد كانت هذه المدينة خالية من الجنود ، وهكذا أصبحت كل هذه البلاد للعرب ، وهذا ما أقلق الانطاكيين لأن طرق الامداد سدت في وجوههم ، فقلت مؤنهم ، لهذا تذلل البرنس لصلاح الدين ورجاه الأمان ، فكان له ذلك لمدة ثلاثة أشهر ، ثم توجه صلاح الدين الى حلب ومنها الى دمشق لينال قسطا من الراحة ، ومن ثم يمم شطر صغد فحاصرها الى أن أخذها من ولاتها كما أخذ بلدة كوكب بعد أن ضيق عليها.

وفي هذا العام توفي طبيب دمشق يدعى الموفق أسعد ، ويعرف بأبن المطران ، وكان نصرانيا فاعتنق الاسلام ، وقد اجتمع لديه المال الكثير وزوجه صلاح الدين إحدى جواريه ، ولكنه مالبت أن مات فخبت شهرته ، وبعد أن توفي صلاح الدين شوهدت امراته وواحد من فتيانه يتسولان في بيوت الضباط .

وفي عام ٥٨٥ للعرب (١١٨٩ م) غزا صاحب أنطاكية البرنس بلنتي حارم وشيخ ، وبطش بمن فيها من المسيحيين والعرب ، وفي هذه الأونة وبعد أن أخذت صيدا من صاحبها أرناط توجه أرناط هذا الى شقيف أرنون بإن من صلاح الدين ، ثم قدم الى صلاح الدين نفسه وطلب منه أن يمهل ثلاثة أشهر ليعمل على نقل أهله من صور الى دمشق ويتخلى له عن الشقيف المذكور أنفا فأن له صلاح الدين ، لكنه مالبت أن أدرك أن أرناط يراوغ ويخادع فاعتقله ، ثم

بعث به الى دمشق ولم يفرج عنه إلا بعدما تخلى له عن الشقيف المذكور .

وفي هذا العام ١٥٠٠ لليونان (١١٨٩ م) نشب خلاف بين السلطان قلج أرسلان وبين ابنه الأكبر المقيم في سبسطية ، فقتل نحو أربعة آلاف تركي من اتباع الولد ، ومن ثم أصلح بينهما الأمير بهرامشاه صهر السلطان الذي أبعد عنه حاجبه الأمير اختيار الدين حسن الذي سبب الخلاف بين السلطان وولده ، فجمع اختيار الدين نحو مائتي فارس من أقربائه وتوجه بهم الى مرج كينوك ، فحمل عليهم جماعة من التركمان بأمر من ابن السلطان ، فبطشوا باختيار الدين واتباعه ، ثم قطعوا اختيار الدين وجعلوا أشلاءه على رؤوس رماحهم وطوفوا بها في سبسطية يوم عيد الصليب .

قدوم الافرنج الى صور

وتولى في هذا العام ملطية معز الدين قيصر شاه بن السلطان قلج أرسلان ، وقدمت في هذا العام أيضا الى صور جماهير غفيرة ومختلفة من الفرنج ، ثم توجهوا منها الى عكا ، وما أن علم صلاح الدين بذلك حتى تاهب فاستنفر جميع جيوشه ، وزحف بها الى مقربة من الفرنجة ، ولاحظ أنهم يزدانون يوما إثر يوم ، فتداول الأمر مع قواده فرأوا أن يغيروا على الفرنجة قبل أن يزدانوا أكثر فأكثر ، فاستعدوا لذلك أول رجب في ليلة الجمعة ، وفي الصباح التحم الجمعان وأمضوا طيلة النهار يقتتلون سجالا حتى إذا جن الليل بات الجميع على جيادهم ، وفي صباح السبت استؤنف القتال ، فاستمر حتى المساء ، وفي أثناء ذلك انسحب الفرنجة من جهة الجانب الشمالي لعكا لأنه لم يكن لديهم خيام هناك فدخل صلاح الدين مع عدد من رجالته عكا ، وأدخل الامداد اليها وأخلاها من الضعفاء ، وأوعز الى جنده أن يستمروا في القتال دفاعا عن السور وضد سائر الفرنجة لعلهم يستسلمون ، ولكن هؤلاء - الفرنجة - لكثرة عددهم لم يستسلموا بسهولة ولم

يسمحوا للعرب أن يفتحوا ثغرات في جيوشهم ، ولهذا لم يكن من السهل على صلاح الدين الأيوبي أن يفتكوا بالعدو من الفرسان الفرنجة على مخيم للعرب ، وفتكوا بالعديد منهم ، فطاردهم العرب إلى تل يدعى تل المصلوبين حيث كان يعتصم هؤلاء الفرنجة ويتحصنون بإحكام ، فتحول صلاح الدين إلى تل يقابل التل السالف ، ويطل على عكا ، وصار الرجال من الجيش يتبارزون في كل يوم حتى سئم الفرنجة ، فنادوا العرب قائلين لا شك أن كلانا سئم من هذه الحرب وتريد اليوم أن نلهو قليلا بمبارزة الفتيان الصغار منا ومنكم ، فجمعوا مائة فتى من كل طرف ، وأخذوا يتقانون بالحجارة ثم الرماح والعصي وأخيرا هزم الفتيان الفرنجة الفتيان العرب وحشروهم في المدينة ، على أن الملحمة العظمى كانت يوم الأربعاء ٢٠ رجب عندما انطلق الفرنجة من خيامهم كالنسر يتقدمهم الملك والكهنة وقد حملوا الإنجيل فوق رؤوسهم مغطى بقماش حريري أحمر ، ففوجئ صلاح الدين واستنفر جنده بصيحات مدوية ، فتحول الفرنجة من الجهة اليسرى إلى الجهة اليمنى حيث كان ابن أخي صلاح الدين ، تقي الدين عمر الذي كان يقاتل الفرنجة بضراوة ، وعندما أيقن الملك أن العرب صامدون وضع شارة الصليب على وجهه وهجم يشق صفوف الجيوش العربية حيث كان ولدا صلاح الدين الظاهر والأفضل ، وقطب الدين ابن نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وابن لاجين صاحب نابلس وغيرهم والتحم الجمعان وراح الفرنجة يلتمسون العرب التهام النار للشهيد ، ففر العرب وطاردتهم الفرنجة وأبواقهم تصدح بصيحات النصر ، وقد هزم العرب شر هزيمة في ذلك اليوم فقد بلغ الفرنجة حدود طبرية وبمشق وسلبوا العرب خيامهم وبطشوا بالضعفاء منهم ، ثم عابوا فطاربوا العرب ، نحو فرسخ ، فوجدوا بقية باقية منهم ، فلم يتعرضوا لهم بأذى لما لاحظوه عليهم من الضعف والاعياء ، بل خلدوا إلى الاستراحة في خيامهم ، في حين كان صلاح الدين يصيح بجنده المنكسرين ويستنهضهم ، لكنهم لانوا بخيامهم وقد نال منهم التعب والاعياء، وكان من نتائج هذه الواقعة مقتل ألفي

فرنجي ، وأربعة آلاف ومائة عربي فأمر صرح الدين بأن تلقى جثثهم في البحر ، فأمسك رجل بخيط وصار يعقد فيه عقده كلما القيت جثته في البحر ، وفي هذه الأحيان رأى قادة صلاح الدين أن يبعثوا بعض الشيء عن الفرنجة محتجين لذلك بفساد المناخ بسبب الروائح المنتشرة من جثث القتلى ، وأما الفرنجة فقد أخذوا بحفر خندق من التل إلى البحر يفصلهم عن الجيوش العربية ، ثم طوقوا عكا من ناحية البحر ، فقطعوا الطريق عليها ، فلم يعد بوسعهم أن يدخلوا إلى المدينة أو أن يخرجوا منها .

وفي هذه الآونة قدم ملك الألمان عن طريق القسطنطينية بمائتي ألف فارس وراجل ، فخاف صلاح الدين ، وبعث سفيرا له يدعى بهاء الدين ابن شداد إلى خليفة بغداد وكل ملوك المشرق ، يستنجدهم والافالعربية ستضمحل لا محالة.

وعندما أملت سنة ٥٨٦ للعرب (١١٩٠ م) ارتاح صلاح الدين لتحول الفرنجة الذين ركزوا كل اهتمامهم على مدينة عكا ، ومع ذلك فاجأوا العرب حين كان صلاح الدين في رحلة صيد ، فاستنفر الجند أخوه العادل فأغاروا على الفرنجة ، وتنازلت القتلى من الطرفين ولو لم يحل الظلام لحسمت المعركة لصالح أحدهما ، وارتد الفرنجة إلى معسكراتهم ، وهطلت أمطار غزيرة فشككت أوحالا حالت دون استمرار القتال ، ولا سيما على الفرسان ، ولم يعد بمقدور صلاح الدين أن يعرف شيئا عن الذين في عكا من العرب حتى استطاع أحد سكان عكا أن يسبح في البحر ، ويذهب إلى صلاح الدين ويعلمه أن الفرنجة يحاربون هذه المدينة حربا ضروسا وأنهم يستعدون لاقتحامها بعدما بنوا أبراجا عالية تطل على المدينة ، وهذا ما جعل سكانها في خطر داهم ، فقرر صلاح الدين أن يزحف إلى الفرنجة ليشتغلهم قليلا عن داخل عكا ، لكن اعترض سبيله عدة خنادق كان الفرنجة قد حصنوا أنفسهم بها ، ولهذا ينس صلاح الدين من الوصول إليهم ، فتراجع إلى تل يعرف بتل العجول بعيدا عن الفرنج. وفي هذا الوقت أتى إلى نجته ملوك عدة من العرب نذكر منهم ، على

سبيل المثال : معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود صاحب اربيل ، وعلاء الدين كرم شاه بن مسعود صاحب الموصل ، واستطاع صلاح الدين أن يدخل إلى عكا رجالاته نوي خبرة باشعال النار فأحرقوا ثلاثة أبراج فرنجية ، ولو لم تعصف في تلك الفترة رياح شديدة لكان قد أحرق لهب الأبراج الأفرنج كلهم ، ومن سوء حظ الأفرنج أن الخنادق التي تربصوا بها لم تدع لهم فرصة للفرار أو النجاة من النيران ، وأما الأبراج التي احترقت فقد صممت على نحو يذهل من يراها ، فقد وضعت على عجلات تمكنهم من دفعها والصاقها بالسور متى شاؤوا كما كان بمقدورهم أن يجتنبوها بالحبال اليهم دون أن ينزلوا من عليها من المتحاربين .

وأما ملك الألمان ، فقد منعه اليونان في البداية من أن يغادر القسطنطينية ، ولكنه ألح عليهم فأفسحوا له المجال ، ليصل إلى بلاد قلج أرسلان حيث جيش السلطان قطب الدين ملكشاه الجيوش واعترض بها الألمان لكنه هزم أمامهم ، وبلغ الألمان قونية وبتطشوا بالعديد من أهلها ، وفي هذا الوقت قصد بباس ميخائيل القسيس اليوناني والكاتب الملطي إلى قونية ليدفع الخراج فأغار عليه التركمان وأردوه قتيلا ، وبقي قلج أرسلان معتصما بقلعة قونية إلى أن دفع مبالغ طائلة لملك الألمان وصالحه ، وفتح في وجهه الطريق إلى قيليقية ، فبادر إليه لاون ابن اسطفان بن لاون صاحب قيليقية ، وزاره في طرسوس وأزعن له ، ومن ثم ذهب ملك الألمان - وهو شيخ يسبح في النهر مع أن البرد كان في ذلك الوقت قارسا فمرض ومات فنقل ابنه جثمانه إلى أنطاكية ، ثم سار باقي الألمان - وقد أنهكوا - إلى ضواحي طرابلس ، ثم أبحروا إلى عكة ، ولكن معظمهم قضى نحبه في قيليقية بسبب المرض .

وفي هذه الأثناء قدم ملك انكلترا ، فتوقف في قبرص وانتزعها من اليونان ، ومن ثم واصل مسيره إلى عكا فقويت شوكة الفرنجة في هذه المدينة التي كان فيها أيضا عشرة أمراء عرب ، فأخبروا صلاح الدين بأن الحروب المستمرة أوهنتهم ، فاستبدل بهم أمراء لم يكن

لهم مزيد خبرة بفنون القتال على السور ، ولهذا ازداد موقف الفرنجة قوة ومنعة ولا سيما بعد أن نصبوا سبعة منجنقات مقابل كل برج ، ومع ذلك بعث ملك انكلترا الى صلاح الدين سفير يسبر امكانية الاجتماع به والاتفاق على تدبير يخدم مصالح الطرفين ، فكان جواب صلاح الدين أن يصطحب الطرفان أولا ومن ثم يمكن أن يترتب أمر الاجتماع ، لأنه لا يليق بالملوك أن يقتتلوا بعد أية مفاوضات ، ثم حدث أن مرض ملك انكلترا ، فتوقف الفرنجة عن متابعة الحرب ، لكن ما أن تماثل الملك للشفاء حتى أرسل سفيره ثانية الى صلاح الدين ، وقال له: أرجو أن تعزني عن التصير في اجابتك ، فقد انتابني مرض أعاقني عن ذلك وهأنذا قد شفيت الآن ويادرت الى مراسلتك وأرغب أن أبعث اليك ببعض الهدايا ، فلا يحسن بالملوك أن يقطعوا عرى المودة وتبادل الرسائل والهدايا والتفاني ولو في أوقات الحروب ، هذا ما علمنا اياه أبأؤنا الملوك السالفون، فقال صلاح الدين: إن هادنتمونا هادناكم ، فأجاب السفير إن لدينا حماما زاجلا ونسورا وبواشق وليس لدينا ما نطعمها فلو أعطيتمونا زغاليل وجاجا اطعمناها وأحضرناها اليكم ، فقال أخو صلاح الدين العادل للسفير على سبيل المزاح : طالما ملك انكلترا قد عوفي فلا شك أنه يحتاج الى زغاليل.

ثم ألبس صلاح الدين السفير الانكليزي حلة ملكية وحمله بعض الدجاج والحمام والزغاليل ، وبعد ثلاثة أيام عاد سفراء الفرنجة الى صلاح الدين يريدون ثلجا وثمارا فحملوا ما طلبوا ورجعوا ، وقد قيل إن الملك الانكليزي لم يهدف من إرسال سفرائه الى صلاح الدين المرة تلو الأخرى الا ليوقف على مآلديه وعلى ما لدى ملوك المشرق من القوات ، وعندما ضيق الفرنجة على العرب في عكا قال أهلها لصلاح الدين: أنجدنا والافسوف نسلم المدينة ، وكان صلاح الدين يعمل جاهدا على شغل الفرنجة بالقتال داخل عكا وخارجها ، وهذا ما حدث فقد أجبر صلاح الدين الفرنجة على تقسيم جيوشهم الى قسمين ، قسم لمنازلة العرب داخل عكا ، وقسم لمحاربتهم في الخارج ، ولما أيقن العرب داخل عكا أنهم

مهزومون لا محالة ، طلبوا الامان ، فأجابهم الفرنجة بأن تلك شروط بأن يرد لهم صلاح جميع الأسرى الفرنجة ، وكل البلاد والمدن التي أخذها منهم ، فكان رد صلاح إني أفرج عن ثلاثة آلاف أسير فقط لقاء العرب الذين داخل عكا ، وإذا تخلى الفرنجة عن المدينة بادلتهم بمدينة عوضها ، والا فليستعيبوا تلك المدن بالقوة كما أخذتها منهم ، وما إن علم الفرنجة بذلك حتى صعّدوا على أسوار عكا بالسلالم ثم هبطوا الى قلب المدينة وفتكوا بالكثير ممن فيها ، وانحسر بعض الأهالي في ناحية من المدينة ، فقالوا للفرنجة : انتظروا ريثما نطلب من صلاح الدين أن يدفع لكم ذهباً ويفرج عمن لديه من أسراكم ، فوافق الفرنجة على ذلك واتفق الطرفان على أن تكون المهلة أربعة عشر يوماً حتى يبدو القمر الجديد وعلى أن يقدم صلاح الدين للفرنجة مائتي ألف دينار ذهبي، وأن يفرج عن مائة أسير تحدد أسماءهم من الكونتية والقمامصة وأن يفرج عن ألف وخمسمائة أسير آخرين غير محددين ، وبعث بهذا الاتفاق الى صلاح الدين ، فتداول الأمر مع قواده ، فقالوا بصوت واحد: إن هؤلاء العرب أخواننا ويجب أن نتقدم ، فأخذ صلاح الدين بهذا الرأي وجمع الأسرى الفرنجة ، وأما الذهب ، فقد تقرر أن يدفع للفرنجة في كل عشرة أيام ثلث المبلغ الذي تقرر دفعه ، وعندما انتهت الأيام العشرة الأولى طلب من الفرنجة أن يفرجوا عن كل الرهائن الذين عندهم ، على أن يدفع ثلث الذهب وجميع الرهائن بدلا من الثلثين الباقين : أو أعطونا رهائن من عندكم بدلا من ثلث الذهب الذي سوف تقبضونه ، فقال الفرنجة : تكفيكم كلمتنا وتقريرنا بشأن الرهائن ، فأنف صلاح الدين من هذا الجواب ، ورفض طلبهم فنقموا نقمة عارمة وقيدوا كل من لديهم من العرب بالحبال وساقوهم الى تل قرب المدينة ، وأوثقوهم بالحبال وجمعوا حولهم براميل الخمرة العتيقة والحطب وحشروهم ثم فتكوا بهم بالسيوف ، وكان كاتب الديوان يشهد ذلك ، وقدر عدد القتلى من العرب المتناثرين داخل عكا وخارجها وعلى أسوارها وعلى التل المذكور أنفا بمائة ألف وثمانمائة نسمة ، وكان ذلك في رجب من عام ٥٨٧ للعرب ، وفي آب من عام ١٥٠٢ لليونان ، (١١٩١ م)

وإنما أطلنا في الحديث عن هذا الحصار لكونه مشهورا عند العرب ، فقد كتبوا فيه مجلدات حول ما أصابهم من الشدة من الفرنجة.

وما أن مكن الفرنجة أقدامهم في عكا حتى بادروا الى تنظيم جيش لحراستها ، ورمموا ما تداعى من أسوارها ، ثم توجهوا الى أرسوف ، وكذلك رحل صلاح الدين لكن مع ذلك ظل كل منهما يتعرض للأخر بين الفينة والأخرى على الطريق ، وفي أحد الأيام هاجم صلاح الدين الفرنجة فحلق الملك الانكليزي وأغار على صلاح الدين وصحبه غارة بدبتهم ، ولم يبق مع صلاح الدين الا سبعة عشر من أختيار العرب وحملة الرايات ونافخي الأبواق ، وكان يمكن أن ينقض الفرنجة على صلاح الدين ومن بقي معه وأن يأسروا صلاح الدين فيقوضوا بذلك أقوى سند للعرب ، ولكنهم خشوا أن يتربص بهم كمين ، فأقلعوا عن ذلك.

وسير صلاح الدين في ذلك الحين فرسانا وبنائين الى قلعة بغراس ليأتوه بما فيها من النخيرة والمؤن وليهدموها ، ولكنهم ما إن بلغوا تلك القلعة حتى علموا أن لاون صاحب قبليقية استعد ليغير عليهم ، فرجعوا فارين ، وعندما علم الأنطاكيون بذلك توجهوا الى هذه القلعة - وكانوا إذ ذاك في ضيق من أمرهم - فوجدوا فيها اثني عشر ألف مكوك من القمح ففرجوا بذلك عن أنفسهم لأن الجوع كان قد ضايقهم جدا ، وما هي الا أيام حتى أغار لاون على بغراس وأخرج الفرنجة منها.

وأغار صلاح الدين على عسقلان وأخلاها من سكانها ، ولكن العرب عجزوا عن حراستها ، وقد سوغوا ذلك بأن الفرنجة بنوا بينها وبين القدس مدينة يافا ، وذهب صلاح الدين الى بيت المقدس ووضع فيه من العتاد والرجال ما يمكن أن يحميه ، وفي ذلك الوقت قصد صاحب ملطية معز الدين صلاح الدين وشكا اليه محاولة أبيه

وإخوته انتزاع هذه المدينة منه فأوسع له صلاح الدين وزوجه من ابنة أخيه العادل ، وطمانه قائلاً: لا تخف أباك ولا أخوتك .

وأرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين رسولا يقول له: لقد أتت الحرب على جندينا وجندكم والام ستتظل الأمور على هذه الحال ، وقد رويت سيوفنا وسيوفكم من الدماء ، فلترد ما أخذته منا من البلاد ولا سيما بيت المقدس مقربينا الذي تركنا أوطاننا من أجله فإن قبلت ذلك غادرنا الى أوطاننا تاركين كل شيء فتستريح ، فأجاب صلاح قائلاً: ان هذه البلاد كانت فيما سبق لليونان لالكم ، وقد أخذها العرب منهم وعندما ضعف العرب أخذتموها منهم ، ونحن الآن نسترد بلادنا منكم ، وأما القدس التي تعونها مقام بينكم ، فهي ايضاً مقربينا ، ونحن نقدها أكثر منكم ، وهذا ما أوصانا به الله في القرآن .

ثم أرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين مرة ثانية ، وقال : أرغب في أن يصاهرني العادل أخوك ، فأزف له شقيقتي التي جاءت معي لتسجد في بيت المقدس واذا ما اكتفيت أنت بالقلع والمدن ، وبقيت القرى بيد الرهبان الداوية والاسبتارية ، وتخلت لأخيك العادل عن المدن الساحلية ، عند ذلك يتم الزواج ، وسأستعمل أختي على كل المدن التي بحوزة الفرنجة الآن ، وسيكون مركزها بيت المقدس ، فأبى صلاح الدين ذلك في حين كلف أخوه بشقيقة الملك الانكليزي ، وطلب الى القواد والأعيان ان يقنعوا أخاه صلاح الدين بعرض ذلك الملك ، فتشبت صلاح الدين برأيه ، لكن هؤلاء القادة قالوا له نحن متأكدون من أن هذا الزواج لن يكون ، فابنة الملك الكبير تأنف الزواج من عربي ، ولعل الملك عرض عليك ذلك مازحاً كعاقبته ، ولهذا كله يحسن الاتخجل اخاك ، فوافق صلاح الدين وبعث سفيراً الى ملك الانكليز ليخبره بذلك فأقام السفير ثلاثة أيام ، ثم قال له الملك : استغرقت ثلاثة أيام في سبيل ان أقنع أختي بهذا الزواج ، فلم تقنع بذلك الا اذا تنصر العادل ، فعاد السفير خائباً .

وفي هذه الأيام توفي تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وهو في طريقه الى خلاط لمحاربته ، فحمل الى ميفارقين حيث دفن ، وكان تقي الدين هذا شديد الكراهية للمسيحيين ولهذا كان يبغض بالفلاحين الأرمن بلا رحمة في جبل جور ، وكان مع تقي الدين المتوفى ابنه الملك المنصور فاعتصم بميفارقين، وأرسل لصلاح الدين قائلاً ان أخذت مني بلاد أبي تقي الدين تحالفت مع بكتمر صاحب خلاط ، فأذعن له صلاح الدين قليلاً ، ثم جعل العادل واليا على بلاد ابيه ، في حين نصب الملك المنصور على سميساط وحران والرها .

وبعد يوم واحد من رحيل العرب والفرنجة عن عسقلان كمن العرب للفرنجة وهم يقطعون الحطب خارج المعسكر ، ولكن الفرنجة اكتشفوا أمرهم فامتطوا جيادهم ، وبتشوا بثلاثة من قواد صلاح الدين في حين أسر العرب فارسين من الفرنجة ، فوجه ملك الانكليز الى الملك العادل سفيرا يعاتبه على ذلك الكمين ، وأبدى رغبته في أن يجتمع بأخيه السلطان صلاح الدين في تلك الخيمة ولكن صلاح الدين رفض ذلك لأمرين أحدهما الخوف ، وثانيهما أنه لم ير ذلك مقبولاً قبل ان يعقد بينهما صلح وهذا مالم يكن ، وعلى افتراض حصول مثل ذلك الاتفاق فان احدهما لا يفهم لغة الآخر الا بترجم فليكن اذن المترجم سفيرا ، وذلك يغني عن الاجتماع المباشر ، وعندما حل الشتاء ارتحل صلاح الدين الى بيت المقدس وارتحل الملك الانكليزي الى عكا ، ثم ارسل صلاح الدين للملك اربعة وعشرين ألف دينار ذهبي من أجل أن يفرج عن الأسرى العرب .

وفي مستهل عام ٥٨٨ للعرب (١١٩٢ م) سار الفرنجة الى عسقلان وبدأوا بترميم ابنتها ، وكان قد نشب خلاف بين المركيز صاحب صور وبين ملك الانكليز ، فقد طمع المركيز ان يستقل بهذه المدينة عن الملك ، فحاول الملك أن ينزعه عنها ، فأرسل المركيز الى صلاح الدين يخبره بالتحالف معه لمحاربة أبناء جلدته الفرنجة ، وبينما كان سفير المركيز عند صلاح الدين تسلل اليه

رجلان اسماعيليان تنكرا بلباس الرهبان ، فطعنه أحدهما بسكينة ، وفر الثاني الى كنيسة مجاورة كان قد نقل اليها سفير الماركيز ، وعندما سمعه هذا الاسماعيلي الثاني يتكلم هجم عليه ضمن الكنيسة وطعنه ثانية فأجهز عليه فألقى الفرنجة القبض على هذين الرجلين وعنبوهما فزعموا أن ملك انكلترا هو الذي بعث بهما ، فصدق الفرنجة ذلك لما بينه وبين الماركيز من خلاف ، ولكن تبين فيما بعد أن (سنان) زعيم الاسماعيليين هو الذي أرسلهما ليغتالا سفير الماركيز ، واثرتلك جعل الملك الانكليزي الكونت هنري واليا على مدينة صور ، فتزوج امرأة الماركيز وجامعها وهي حامل مخالفا بذلك الناموس .

وفي هذه الغزوة زحف الفرنجة الى الداروم ، وأخذوها من المسلمين ويطشوا بأهلها ، كما اعترض الفرنجة قافلة كبيرة للمسلمين آتية من مصر تحمل ذهبا لصالح الدين ، أضف الى ذلك أن معلومات وردت اليه تفيد أن الفرنجة يستعدون للهجوم على القدس فجهز جيوشه لمانزلتهم ، وأحكم تحصين أسوار المدينة وخرّب كل القنوات خارج السور ، وعندما علم ملك انكلترا بذلك أوعز الى الفرنجة بالتوقف عن الزحف الى بيت المقدس قائلًا : لم يعد في ضواحي المدينة ماء ، فالعرب قد خربوا قنوات المياه وأما النهر فبعيد عنها مسافة تزيد على الفرسخ ، ولا تظنوا أن بيت المقدس مثل عكا التي لولا البحر لما استطعنا أن نحاصرها أكثر من يومين ، فأخذ الفرنجة برأي الملك وتحولوا الى غزة ، ففرح صلاح الدين بذلك ، لكن الملك عاد فأوفد اليه سفيرا ليقول له : لا تظن أنني أعرض عن غزو بيت المقدس ضعفا وجبنا ، فإن الكيش لا يرجع القهقري الا لكي ينطح الرأس ، فإن رأيت أن نتهامن على ما نريد ، فهذا أفضل لك ، وبعد عدة مراسلات تهانن الطرفان على أن تبقى بلاد الفرنج للفرنج ، وهي : يافا وضاحيتها ، وطرابلس وأنطاكية وعكة ، وحيفا وقيسارية وأرسوف ، وتظل سائر البلاد تحت سلطان العرب ماعدا عسقلان التي يجب أن تمسي خرابا على أن يدفع صلاح الدين للفرنجة ما أنفقوه من أجل إعادة

بنائها ، وأفسح المجال أمام جماهير الفرنجة لزيارة القدس ، وقد غالى صلاح الدين في إكرام هؤلاء الزوار وأجزل لهم العطاء كما قدم لهم خيولا ليركبوها ، ويقال ان ملك الانكليز بعث الى صلاح الدين يقول ان كل فرنجي لا يحمل علامتي لاتسمح له أن يدخل بيت المقدس ، فاستفسر صلاح الدين من بعض العقلاء عن هذه العلامة ، فقيل له ان العبادة هي الدافع الاسمي الذي يحمل الفرنجة على المجيء الى بيت المقدس ، فاذا ما حجوا ورجعوا الى اوطانهم لم يعد لديهم ما يحملهم على العودة الى المشرق ، وعليه اذا ما احتاج الملك العودة ثانية الى المشرق لا يمكنه أن يلزمهم بمرافقته ، وعندما فهم صلاح الدين ذلك ، بعث للملك يقول : ان هؤلاء الناس هم غرباء لا يحسن بي ان أضييقهم ، وأما أنت فبوسعك أن تمنعهم من المجيء الى هنا .

واثر احتلال الفرنجة لعكة قبضوا على زعيمين عربيين ، وهما ابن المشطوب ، وقرقوش الحاجب الرومي الأهل الذي بعثه صلاح الدين الى افريقية ، وفتح مدنا عدة ، ومن ثم رجع الى مصر حيث اشاد سورا ما يزال يعرف باسمه الى اليوم، وقد عهد اليه فيما بعد بقيادة الجيش في عكا ، وقد طالبه الفرنجة بثمانية آلاف دينار للافراج عنه ، فقال لهم:كم دفع ابن المشطوب حتى أفرجتم عنه؟ فقالوا دفع ثلاثين ألف دينار ، فقال :ليس من الانصاف أن يدفع هو ثلاثين ألف وأنا ثمانية آلاف ، فضحك الفرنج وقبضوا منه ثلاثين ألف ، ولقرقوش حكايات طريفة مثل هذه ، من ذلك أن أحد الشعراء نظم فيه ديوانا تماما لم يظهره الا بعد ان توفي ذلك الشاعر .

وبعدما عقد الصلح بين العرب والفرنجة ذهب صلاح الدين الى بيروت ، حيث زاره البرنس بوهيموند صاحب أنطاكية فغالى في اكرامه وضيافته ووشحه كما وشح الأعيان الأربعة عشر الذين حضروا معه حلالا ملكية ، ومنحه نصف غلة أنطاكية التي كان العرب قد احتلوها من قبل ، وقد أعجب صلاح الدين بمجيء البرنس

اليه بهذه الثقة وتلك الطمأنينة ، ولهذا بالغ في إكرامه وأجزل عطاءه وأحسن توديعه ، ومن ثم رحل صلاح الدين عن بيروت الى دمشق .

أما ملك انكلترا فقد استعمل على عكا ابن اخته القمص هنري ، ومن ثم عاد الى وطنه ويظن انه مات قبل ان يصل اليه (٢٥)

وفاة السلطان قلق ارسلان

في آب من سنة ١٥٠٣ لليونان ، ١١٩٢ م توفي في قونية السلطان قلق ارسلان الذي كان يتحلى بشجاعة وذكاء تمكن بهما من طرد اليونان من عدة مواضع ، وعندما تقدمت به السن قسم مملكته على أبنائه ، ويبدو أن هؤلاء الأبناء لم يكونوا يبشرون بأبيهم ، فقد كان اذا حضر عند أحدهم للغذاء - مثلا - ملة فاضطر للتحول الى ابن آخر ، الى أن زار ابنه صاحب مدينة بروغلو غياث الدين كيخسرو فرحب به وأحسن وفادته ، ثم جيش جيوشه واصطحب اباه وتوجه الاثنان الى قونية فانتزعا من اخيه قطب الدين ، ثم سارا الى أقصر حيث مرض الأب الشيخ هناك فأعاده ابنه كيخسرو الى قونية وتوفي هناك وكانت مشواه الأخير ، وبقي كيخسرو متوليا أمر قونية ، الى أن أخرجه منها أخوه ركن الدين ، وسنوضح ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى ، والجدير بالذكر ان مدة حكم السلطان قلق ارسلان بن مسعود بن قلق ارسلان بن سليمان ابن قتلмыш بن بيغو بن سلجوق بن دقاق قد استمرت ثمانية وثلاثين عاما وقد كان أبا لاثني عشر ملكا (٢٦)